محاضرات النقد القديم

العصر الجاهلي – صدر الإسلام

د. حمود يونس

القسم الأول– النقد في العصر الجاهلي

أولا– قراءة في أخبار نقدية من العصر الجاهلي

الخبر الأول– قبة النابغة الذبياني.

الخبر الثاني– موازنة أم جندب بين امرئ القيس وعلقمة الفحل.

الخبر الثالث– حكومة ربيعة بن حذار الأسدي.

تمهيد – بين يدي قراءة الأخبار النقدية:

قبل البدء بذكر بعض الأخبار النقدية من العصر الجاهلي، وقراءتها قراءة نقدية تحليلية، أود أن أنبه على بعض النقاط التي لا بد من التنبيه عليها، والإشارة إليها، لتكون عونا على القراءة والفهم والتحليل من جهة، ولكي تجيب عن بعض التساؤلات التي قد تدور في ذهن القارئ حول بنية هذه الأخبار وطبيعتها، وآليات قراءتها من جهة أخرى.

١- يمكن القول بداية: إن الأخبار النقدية الجاهلية تشكل مصدر النقد ومادته الأساسية في العصر الجاهلي، وهي التي تعرفنا جوهر هذا النقد ومادته، وتمدنا بالمعلومات الوافية عن ملامح هذا النقد وشكله وبنيته التي كان عليها، كما أنها تمثل مرحلة ولادة النقد العربي القديم، وبداياته الأولى التي أسست لمراحله المختلفة في العصور التالية.

٢- إن ما وصل إلينا من أخبار نقدية في هذا العصر، لا يعد كثيرا بالقياس إلى الفترة الزمنية التي يمتد فيها، وبالنظر إلى كمية الشعر التي وصلت إلينا من هذا العصر، كما أنه لا يوازي الشعر الجاهلي من حيث نضجه وتطوره، ولهذا الأمر أسبابه التي سنقف عليها لاحقا، فضلا عن تشكيك بعض العلماء والباحثين قديما وحديثا ببعض هذه الأخبار، وبصحة نسبتها إلى العصر الجاهلي من جهة، وإلى أصحابها الذين نسبت تلك الأخبار إليهم من جهة أخرى، ومع ذلك فإن هذه الأخبار – على قلتها – يمكن أن تقدم لنا صورة مقبولة لهذا النقد، وتبين واقع الحركة النقدية بمختلف أشكالها ونشاطاتها ومناحيها في العصر الجاهلي.

٣- إن من أهم ما يلفت نظر الدارس المدقق في الأخبار النقدية في العصر الجاهلي، هو اختلاف رواياتها، إذ نقع على أكثر من رواية للخبر النقدي الواحد، وقلما نقف على رواية واحدة فقط، ويرجع تعدد هذه الروايات إلى أن تلك الأخبار كانت تعتمد على الرواية والمشافهة في الانتقال من جيل إلى جيل آخر من جهة، وعلى اختلاف الرواة الذين رووا تلك الأخبار ونقلوها من جهة أخرى، ومن هنا صرنا أمام روايات متعددة ومختلفة للخبر النقدي الواحد، فمنها ما يطيل ويفصّل، ومنها ما يختصر ويقتضب، إلا أنها في معظمهما لا تتناقض فيما بينها، ولا تتباين كثيرا، بل يكمل بعضها بعضا، ويتم بعضها نقص بعضها الآخر، ويمكن للدراس الذي يريد

دراسة النقد في هذه الفترة، أن يختار من تلك الروايات، الرواية التي يراها الأفضل والأنسب من وجهة نظره، وهذا ما فعلناه في اختيارنا للأخبار النقدية التي سندرسها في الصفحات القادمة، مع عدم إغفال الإشارة لبعض الروايات الأخرى مما قد يفيد في فهم فكرة، أو توضيح معلومة، أو تعليل رأي.

ولعل من المفيد أن نشير في هذا السياق إلى أن تعدد روايات الأخبار النقدية لا يقتصر على العصر الجاهلي فقط، بل يتجاوزه ليشمل مرحلة النقد الشفوي كلها تقريبا، وهذا يعني أنها سمة من سمات النقد في هذه المرحلة، وعلامة من علاماته المميزة له.

٤- لم تلق معظم الأخبار النقدية – إن لم أقل كلها – العناية الكافية من قبل الباحثين والمهتمين بالنقد العربي القديم عموما، وبهذا النقد في العصر الجاهلي خصوصا، من حيث التحليل الدقيق لهذه الأخبار، والقراءة النقدية المتأنية لها، بهدف الوقوف على سماتها وخصائصها، وإسهامها في التأسيس لحركة النقد العربي التي أعلنت انطلاقتها الأولى بدءا من هذه الأخبار النقدية المهمة، وجل ما كان يفعله المهتمون بدراسة النقد العربي القديم، هو الإشارة العجلى إلى هذه الأخبار، والمرور السريع بها، والحديث غير المتريث عنها بوصفها جزءا من تاريخ هذا النقد ليس أكثر.

٥- يحتمل الخبر النقدي الواحد أكثر من قراءة، وهذا يرجع إلى اختلاف القراء، وتباين مذاهبهم في تحليل الخبر النقدي، وتنوع طرائقهم في القراءة، ولا يستطيع أحد أن يدعي أنّ قراءته هي الأفضل، وأن تحليله هو الأكمل، فكل قراءة يمكن أن تركز على جانب ما في الخبر النقدي، وتسهم في توضيحه وشرحه وتقديمه للقارئ، مما قد لا تلتفت إليه قراءة أخرى، ومن هنا فإن على القراءات أن تتكامل لا أن تتنافر، وعلى كل قارئ أن يكمل نقص غيره من القراء، ويستدرك عليه ما فاته، ويستوفي ما أغفله.

الخبر الأول:

قبة النابغة الذبياني

النص:

"…. عن ابن قتيبة أن نابغة بني ذبيان كانت تُضربُ له قبَّةٌ من أدَمٍ بسوق عكاظَ يجتمعُ إليه فيها الشعراء، فدخل إليه حسانُ بن ثابت وعندَهُ الأعشى، وقد أنشَدَهُ شعرَهُ، وأنشدَتْهُ الخنساءُ قولَها:

قــذىً بعينِــكِ أم بالعــين عُــوّارُ　　　أمْ ذرّفتْ إذ خَلَتْ من أهلِها الدارُ

حتى انتهتْ إلى قولها:

وإنَّ صَــخراً لَتــأْتَمُّ الهُــداةُ بــه　　　كأنــه علَــمٌ في رأسِــه نارُ

وإنّ صــخراً لَمَــوْلانا وســيِّدُنا　　　وإنّ صــخراً إذا تَشْــتو لَنَحّــارُ(١)

فقال: لولا أن أبا بصير- يعني الأعشى - أنشدَني قبلَكِ لقلتُ: إنكِ أشعرُ الناس، أنتِ والله أشعرُ من كلِّ أنثى، فقالت: واللهِ ومن كلِّ رجل، فقال حسان: أنا واللهِ أشعرُ منكَ ومنها، قال: حيث تقولُ ماذا ؟قال: حيثُ أقول:

لنــا الجَفَنــاتُ الغُــرُّ يَلْمَعْــنَ بالضُّــحى　　　وأسـيافُنا يَقْطُـرْنَ مـن نجْـدةٍ دَمـا(٢)

ولَــدْنا بــني العنْقــاءِ وابْــنَيْ مُحَــرِّقٍ　　　فـأكرِمْ بنـا خـالاً وأكـرِمْ بنـا ابْنَمـا(٣)

فقال: إنك لشاعر، لولا أنك قلت: **(الجفنات)** فقللت العدد، ولو قلت: **(الجفان)** لكان أكثر، وقلت:**(يلمعن بالضحى)** ولو قلت: **(يبرقن بالدجى)** لكان أبلغ في المديح، لأن الضيف بالليل أكثر طروقا، وقلت: **(يقطرن من نجدة دما)** فدلَّلْتَ على قلة القتل، ولو قلت: **(يجرين)** لكان أكثر لانصباب الدم، وفخَرْتَ بمَنْ ولَدْتَ، ولم تفخَرْ بمَنْ ولَدَكَ، فقامَ حسان منكسِراً منقطِعاً"(٤).

---

(١) تشتو: من القحط والجدب.

(٢) الجفنات: ج. جفنة: القصعة. الغر: بياض قليل في لون آخر غيره.

(٣) العنقاء: ثعلبة بن عمرو مزيقيا بن عامر بن ماء السماء، ومحرق: هو الحارث بن عمرو مزيقيا وكان أول من عاقب بالنار. ابنما: ابن والميم زائدة.

(٤) الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني: ٩/٢٥١-٢٥٢. و انظر الخبر بروايات مختلفة قليلا في: المصون في الأدب: ٣-٤. وجمهرة أشعار العرب: ٧٩-٨٠. والعمدة: ١/٦٤٩-٦٥٠. والموشح: (٨٢-٨٣)، ٨٣. وقصص العرب: ١/١٦-١٧. ونصوص المصطلح النقدي لدى الشعراء الجاهليين والإسلاميين: ٢٩٢-٢٩٣.

وفي رواية أخرى للخبر أن النابغة قال لحسان بن ثابت بعد أن تحداه بأنه أشعر منه:

" يا بن أخي إنك لا تحسن أن تقول مثل قولي:

فإنــكَ كالليــل الــذي هــو مُــدْركي   وإن خِلْتُ أنّ المُنْتَأى عنك واسعُ"[1].

([1]) الشعر والشعراء: ٣٤٤/١، والبيت في ديوانه:٥٢.

قراءة الخبر:

أولاً- قراءة الخبر على المستوى الشكلي:

يمكن أن نميز في هذا الخبر جملة من العناصر الشكلية التي طبعت الخبر بطابع تشويقي، لا يخلو من بعض الإثارة، لشد انتباه السامع أو القارئ، وجذبه لسماع الخبر، أو قراءته، وهي:

١- **القبة التي كانت تُضرب للنابغة:** وهي قبة من أدم، أي من جلد في رواية أخرى للخبر، وهي المكان الذي يجلس فيه النابغة، إذ تتوافد عليه الشعراء لتعرض عليه أشعارها، ويبدو أن هذه القبة لم تكن موجودة دائما، وإنما كانت تضرب في أوقات محددة يعرفها الشعراء، فيأتون إليها لعرض أشعارهم على النابغة.

٢- **السوق:** وهو سوق عكاظ، وهو المكان الذي يجتمع فيه الناس، وتدور فيه مناقشاتهم الأدبية والنقدية وغير ذلك، فقد كانت للأسواق فيما مضى وظائف كثيرة تجارية واقتصادية وسياسية وثقافية ونحو ذلك.

٣- **توافد الشعراء على النابغة:** ليبدي رأيه في أشعارهم جودة أو رداءة، ويحكم فيما بينهم، مقدما بعضهم على بعض، ومفضلا بعضهم على بعضهم الآخر، وهذا يعني أن الشعراء قد ارتضوا النابغة حكما بينهم، وناقدا لأشعارهم.

ثانيا- قراءة الخبر على مستوى المضمون:

إن قراءة نقدية متأنية وفاحصة للخبر تجعلنا نقدم الملاحظات النقدية الآتية:

١-الناقد في الخبر شاعر:

فالناقد في هذا الخبر هو النابغة الذبياني، وهو واحد من أبرز الشعراء الجاهليين، وفحل من فحولهم، وفي الطبقة الأولى منهم عند ابن سلام الجمحي في طبقاته، إلى جانب كل من امرئ القيس، وزهير بن

أبي سلمى، والأعشى[1]، ونقل ابن قتيبة قول بعضهم:" كان النابغة أحسنَهم ديباجة شعر، وأكثرهم رونق كلام، وأجزلهم بيتا، كان شعره ليس فيه تكلف".[2]

ولعل مكانة النابغة هذه هي التي جعلته مقصدا للشعراء، ليحكم بينهم، ويقوّم أشعارهم، على أنه ينبغي ألا نتوهم أن النابغة ناقد متخصص في ميدان النقد الأدبي، وإنما كان يدلي ببعض الملاحظات النقدية التي تنسجم مع طبيعة المرحلة التاريخية التي يعيش فيها، ولذلك فإنه لا يجوز لنا أن نحمِّله أكثر مما يحتمل، ونطلب منه ما لا يطيقه، ولا تسعفه فيه مقومات عصره النقدية، ويبدو أن ولادة الناقد الأدبي لم تحن بعد، ويبدو أيضا أننا سننتظر زمنا ليس بالقليل، حتى يشتد عود هذا النقد، وتقوى عزيمته، وتوضع أسسه، وتتوضَّح ملامحه، ونكون أمام أول كتاب نقدي خصصه صاحبه لنقد الشعر دون سواه من علوم الشعر الأخرى في القرن الرابع الهجري – كما مر بنا- وهو كتاب (نقد الشعر) لقدامة بن جعفر (٣٣٧هـ) الذي يعد بحق أول كتاب تخصص في نقد الشعر في المكتبة العربية.

٢- الاهتمام بالحركة الشعرية:

يعكس توافد الشعراء على النابغة لعرض أشعارهم عليه، اهتمام القوم بالحركة الشعرية من جهة، واهتمامهم بدور المتلقي وأهميته البالغة في تقويم الشعر والحكم عليه جودة أو رداءة من جهة أخرى، فالشاعر لا يكتب لنفسه، وإنما يكتب للآخر (للمتلقي) ومن هنا فإن هذا الآخر هو المعني بهذا الشعر، وباستقباله وتذوقه والحكم عليه، بدءا من المتلقي البسيط والعادي، وانتهاء بالمتلقي الناقد.

٣-اهتمام الناس بالموازنة بين الشعراء:

يعكس الخبر أيضا اهتمام الناس بالموازنة بين الشعراء، والمفاضلة فيما بينهم، فالنابغة يوازن بين الأعشى والخنساء بقوله:" لولا أن أبا بصير أنشدني قبلك لقلت: إنكِ أشعر الناس، أنتِ والله أشعر من كل أنثى"، ولكنها لا ترضى بهذا الحكم فتعترض قائلة:" والله ومن كل رجل"، فينهض حسان بن ثابت مغضبا ، وإذا به يرى نفسه أشعر من كل من النابغة والخنساء بقوله: "أنا والله أشعر منك ومنها"، ولا شك في أن هذه الأحكام التي أطلقها المجتمعون، تدل دلالة واضحة على عمق مفهوم الموازنة بين

---

(1) انظر طبقات فحول الشعراء: ١/٥١-٥٢.

(2) الشعر والشعراء: ١/١٥٧.

الشعراء في نفوسهم، ورسوخه في أذهانهم، وطغيان هاجس المفاضلة على تفكيرهم النقدي، فهم مولعون بتحديد الأفضل من الشعراء في كل حين، على الرغم من أنهم لم ينتهوا إلى تحديد الشاعر الأفضل، لا في العصر الجاهلي ولا في العصور اللاحقة، وذلك لأسباب كثيرة منها اختلاف الأذواق، وتباين الآراء، وتمايز الاتجاهات في النظر إلى الشعر، ولعل هذه الأسباب وغيرها هي التي جعلت الآمدي لا يقرر أي الشاعرين أشعر في موازنته، وهل هو أبو تمام أم البحتري، يقول:" ولست أحب أن أطلق القول بأيهما أشعر عندي، لتباين الناس في العلم، واختلاف مذاهبهم في الشعر، ولا أرى لأحد أن يفعل ذلك فيستهدف لذم أحد الفريقين، لأن الناس لم يتفقوا على أي الأربعة أشعر في امرئ القيس والنابغة وزهير والأعشى، ولا في جرير والفرزدق والأخطل، ولا في بشار ومروان والسيد، ولا في أبي نواس وأبي العتاهية ومسلم، لاختلاف آراء الناس في الشعر، وتباين مذاهبهم فيه ".[1]

ومن هنا نفهم أيضا ما نُقل عن المفضل الضبي أنه قال:" بلغني أن الفرزدق قال: امرؤ القيس أشعر الناس، وقال جرير: النابغة أشعر الناس، وقال الأخطل: الأعشى أشعر الناس، وقال ذو الرمة: لبيد أشعر الناس، وقال العجاج: زهير أشعر الناس، وقال تميم بن مقبل: طرفة أشعر الناس، وقال الكميت بن زيد: عمرو بن كلثوم أشعر الناس".[2] وهذا يؤكد مرة أخرى أن الناس لم ولن يتفقوا على من هو أشعر الناس.

٤- الأحكام النقدية في الخبر:

وردت في الخبر جملة من الأحكام النقدية هي:

٤-١- تقديم النابغة الأعشى على الخنساء:

" لولا أن أبا بصير. يعني الأعشى. أنشدني قبلك لقلت: إنكِ أشعر الناس".

٤-٢- تفضيل النابغة الخنساء على بنات جنسها ورد الخنساء عليه معترضة:

" أنت والله أشعر من كل أنثى" فقالت:" والله ومن كل رجل".

٤-٣- رد حسان بن ثابت على النابغة بأن جعل نفسه أشعر من النابغة ومن الخنساء:

---

(١) الموازنة بين أبي تمام والبحتري: ١١.

(٢) جمهرة أشعار العرب: ٩٧.

" أنا والله أشعر منك ومنها".

٤-٤- حكم النابغة على حسان بتأكيد شاعريته بقوله:

" **إنك لشاعر**"، لولا بعض الملاحظات التي تناول فيها بيتي حسان اللذين أنشدهما أمامه، والتي سنأتي على التفصيل فيها لاحقا.

٥- سمات الأحكام النقدية في الخبر:

اتسمت الأحكام النقدية في الخبر بمجموعة من السمات التي يمكن تحديدها كما يأتي:

٥-١- التعميم:

فهي أحكام عامة ليس فيها تفصيل أو شرح أو بيان، وهذه سمة عامة من سمات النقد في المرحلة الشفوية، ولا شك في أن التعميم في الأحكام النقدية يفتقر إلى الدقة، ويبتعد عن الموضوعية، وعلى الناقد عموما أن يتجنب التعميم في أحكامه النقدية، لأنها قد تسيء إلى النقد أكثر مما تفيده.

٥-٢- الذاتية:

وهذه أيضا من السمات العامة التي يتسم بها النقد الشفوي في معظمه، فالأحكام في هذا الخبر ذاتية تعبر عن ذوق صاحبها، ورأيه الشخصي في الشعر الذي يُنشد أمامه، وفي الشعراء الذين ينشدون هذا الشعر، ولذلك فهي أحكام تأثرية وشخصية وخاصة بمن يطلقها، ولذلك أيضا فهي غير ملزمة للآخرين، الذين قد يرون خلافها، ويذهبون إلى ما لا يتفق معها، وقد خالط هذه الذاتية شيء من الانفعال، ومازجها بعض من العصبية، بما يعكس عدم رضى المحكوم على أشعارهم بالأحكام الصادرة على تلك الأشعار، كما في رد الخنساء على النابغة بقولها:" والله ومن كل رجل"، وفي ردّ حسان على النابغة بقوله:" أنا والله أشعر منك ومنها"، ولعل هذا يعكس بعضا من سمات العصبية الجاهلية التي كانت متأصلة في نفوس القوم، وراسخة في أذهان الناس وفي ردود أفعالهم.

٥-٣- اعتمادها على صيغة اسم التفضيل (أفعل):

وهذا واضح في تكرار استخدام كلمة (**أشعر**) في هذه الأحكام النقدية، ولعل المتابع للأخبار النقدية في العصر الجاهلي وكذلك في المرحلة الشفوية عموما، سيلحظ أن هذه الصيغة هي الأكثر استخداما، والأكثر دورانا على ألسنة النقاد في نقدهم للشعر والشعراء، وأينما ذهبنا في نقد المرحلة الشفوية فستطالعنا هذه الصيغة بكثرة تلفت النظر، وتسترعي الانتباه، وتعكس اهتمام القوم مرة أخرى بالمفاضلة بين الشعر من جهة، وبين الشعراء من جهة أخرى، بما تحمله هذه الصيغة من معنى الترجيح في ذاتها وفيما تدل عليه، فعندما نصدر حكما نقديا يقضي بأن هذا الشاعر أشعر من ذاك الشاعر، فنحن حكمنا بالتفوق للأول على الآخر مباشرة بدلالة صيغة اسم التفضيل نفسها.

٤-٥- التعليل الطارئ:

إن المدقق في الأحكام النقدية في المرحلة الشفوية عموما، سيلاحظ غياب التعليل عن تلك الأحكام غيابا شبه تام، فمعظم الأحكام النقدية التي كانت تطلق في هذه المرحلة كانت غير معللة إلا في القليل النادر، إذ لم يكن أصحاب هذه الأحكام يهتمون بتعليلها، أو بتفسير ما يذهبون إليه في أحكامهم، بل كانوا يكتفون بإطلاق أحكامهم النقدية عامة غير معللة، وإن وقفنا على شيء من التعليل في بعض الأخبار النقدية كما في هذا الخبر، فهو تعليل يمكن أن نصفه بالتعليل الطارئ أو الاستثنائي، لأن الأصل في الأخبار النقدية الجاهلية هو عدم التعليل، ولعلنا نستطيع أن نرجع عدم تعليل الأحكام النقدية في نقد المرحلة الشفوية إلى أمور أربعة:

أولها: غياب النص المكتوب الذي يمكّن من تدقيق النظر في النص الشعري، وتأمله وإعادة النظر فيه، ومن ثم إصدار الحكام النقدية المناسبة وتعليلها.

وثانيها: أن الناقد لم يكن يمتلك الأدوات النقدية الكافية واللازمة لتعليل أحكامه النقدية.

وثالثها: تتعلق بطبيعة النقد في تلك المرحلة، التي كانت تميل نحو التعميم دون التفصيل، وتعتمد على الذوق والتأثر في معظم الأحيان.

ورابعها: يتعلق بالمتلقي فقد كان الناقد يعتمد على فهم المتلقي وإدراكه لمثل هذه الأحكام النقدية العامة وغير المعللة، ولذلك تجده يلقي أحكامه من دون تعليل.

وهذا ما نجده في معظم الأحكام في هذا الخبر، فالنابغة لم يعلل سبب تقديم الأعشى على الخنساء، إلا بسَبْقِه في الإنشاد، عندما قال:" لولا أن أبا بصير – يعني الأعشى – أنشدني قبلك لقلت: إنكِ أشعر الناس"، كما أنه لم يعلل سبب تقديم الخنساء على بنات جنسها عندما قال:" أنت والله أشعر من كل أنثى".

وأما ما نجده في هذا الخبر من نقد النابغة لبيتي حسان بن ثابت، وظهور شيء من التعليل في هذا النقد، فلعل السبب في هذا التعليل الطارئ أو الاستثنائي، يرجع إلى تحدي حسان للنابغة، وادعائه بالتفوق والغلبة عليه، وبأنه أشعر منه ومن الخنساء، مما أزعج النابغة وأثار حفيظته عليه، وكان لا بد من أن يسأله عن شعره هذا الذي يدعي التفوق فيه، فذكر حسان بيتيه، ومن هنا وجد النابغة نفسه مضطرا للدفاع عن نفسه أمام الحاضرين في القبة، وكيف لا وهو الحَكَم بين الشعراء، فانبرى ليقدم بعض الملاحظات النقدية على البيتين، مبينا بعض المثالب والعيوب فيهما، للحد من غرور حسان وتعاليه، على الرغم من إقراره بشاعرية حسان عندما بدأ بالقول:" إنك لشاعر". وسنقف لاحقا على هذه الملاحظات بشيء من التعليق والتعقيب.

٥-٥- التوكيد:

يمكن أن نلاحظ على المستوى اللغوي وجود بعض المؤكدات في الأحكام النقدية، مثل: القسم في قوله للخنساء:" أنت والله أشعر من كل أنثى". واستخدامه :إنَّ، واللام المزحلقة في قوله لحسان:" إنك لشاعر".

واستخدام هذه المؤكدات وأمثالها في الأحكام النقدية في المرحلة الشفوية أمر معروف ومألوف، ويبدو أن الهدف من استخدام هذه المؤكدات هو أن تكتسب هذه الأحكام مصداقية أكبر، وقوة تأثيرية أعظم لدى المتلقي، لأن للتوكيد علاقة وثيقة ومباشرة بالمتلقي أو المخاطب وأحواله المختلفة، وهذا ما نعرفه من حالات الخبر الثلاث: فإذا كان المخاطب لا علم له بمضمون الخبر، فإن الخبر لا يحتاج إلى توكيد، ويسمى الخبر عندها (الخبر الابتدائي)، كقولنا: عبدالله قائم، وإن كان عند المخاطب شك في مضمون الخبر، فيمكن توكيد الخبر بمؤكد واحد، ويسمى الخبر عندها (الخبر الطلبي)، كقولنا: إن عبدالله

قائم، وإن كان المخاطب منكرا لمضمون الخبر، فيمكن عندها أن نؤكد الخبر بمؤكدين أو أكثر، ويسمى الخبر عندها (الخبر الإنكاري)، كقولنا: إن عبدالله لقائم.[١]

ويمكن أن نلاحظ أن التوكيد في الحكمين النقديين في هذا الخبر، هما من النوع الثالث من أنواع الخبر، أعني الخبر الإنكاري، وهذا يدل على أن النابغة قد استخدم أقصى حالات التوكيد في حكميه اللذين أصدرهما على شعر كل من الخنساء، وحسان بن ثابت، حتى يزيل أي وهم، ويمحو أي إنكار قد يكون عند من يسمع هذه الأحكام، سواء أكان ذلك من الشاعرين، أم من الحاضرين في القبة.

ولعلنا نستطيع أن نلاحظ أيضا وجود التوكيد في رد الخنساء على النابغة بقولها: (والله ومن كل رجل) إذ استخدمت القسم بقولها: (والله)، وفي رد حسان على النابغة بقوله: (أنا والله أشعر منك ومنها) مستخدما القسم كذلك بقوله (والله)، وهما يريدان من هذا إزالة الشك لدى المخاطب في صحة ما يقولانها، وقوة ما يدعيانه، وقد يقول قائل: إن الجاهلي لم يكن يعرف التمييز بين أنواع الخبر وحالاته المختلفة هذه التي ذكرناها بهذه المصطلحات، وأقول رادا: هذا صحيح تماما، فالجاهلي لم يكن يعرف أنواع الخبر باصطلاحاتها التي سقناها، ولكنه كان يعرف التمييز فيما بينها بفطرته الصحيحة، ويدرك الفرق بين الكلام المؤكد والكلام غير المؤكد بسليقته السليمة، ولهذا فهو يؤكد الكلام حيث يجب أن يؤكَّد، ولا يؤكده في الموضع الذي لا يحتاج إلى توكيد.

٥-٦- البعد النفسي:

ثمة بعض الملامح النفسية في هذه الأحكام النقدية، فالنابغة لا يريد للخنساء أن تخرج مغضبة من قبته، فأرضاها بأن جعلها أشعر من كل أنثى، وفي هذا بعد نفسي واضح، فهو يريد أن يشجعها على الاستمرار في قول الشعر من جهة، ولا يريدها أن تخرج محبطة يائسة من قبته من جهة أخرى، فالأستاذ الحقيقي هو الذي يشجع تلاميذه ويحثهم على المتابعة فيما يجيدونه، ويأخذ بأيديهم برفق وأناة، ويسعى لتنمية مواهبهم.

---

(١) انظر حالات الخبر وأنواعه تبعا لحالة المخاطب في: الإيضاح في علوم البلاغة: ٦٧/١ وما بعدها. وفي: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: ٥٧- ٥٨.

ومن الملامح النفسية التي نقع عليها في الأحكام النقدية في هذا الخبر أيضا، تمهيد النابغة لنقد حسان في بيتيه بالقول:" إنك لشاعر" فقد اعترف بشاعريته أولا اعترافا واضحا وصريحا ومؤكدا بمؤكدين اثنين، قبل البدء بتوجيه الملاحظات النقدية، وما ذاك إلا لكي يهيئ حسانا من الناحية النفسية لقبول ما سيأتي بعد ذلك من نقد.

وليس يخفى أيضا ما في قول النابغة في الرواية الأخرى للخبر بعد أن تحداه حسان بأنه أشعر منه:" يا بن أخي إنك لا تحسن أن تقول مثل قولي.....". ففي قوله:" يا بن أخي..." بُعْدٌ نفسيّ واضح أيضا، فالنابغة أراد أن يشعر حسانا بحنوه عليه، وإشفاقه على حاله، كما أراد أن يبين له أنه ما زال في بداية الطريق، وعليه أن يعرف إمكانياته الشعرية جيدا، ويدرك طاقاته الإبداعية حق الإدراك، حتى لا يغتر بنفسه أكثر مما ينبغي، ويتطاول على أساتذته.

٥-٧- التناقض الظاهري:

قد توحي الأحكام النقدية التي تعتمد على استخدام صيغة اسم التفضيل (أفعل) في هذا الخبر وفي غيره من الأخبار النقدية المماثلة بشيء من التناقض، وذلك عندما يطلق الناقد الحكم نفسه على أكثر من شاعر، فأحكام نقدية مثل: أشعر الشعراء، أو أشعر العرب، أو أشعر الناس ونحوها، قد يطلقها الناقد نفسه على أكثر من شاعر من الشعراء، فقد يكون عنده أن هذا الشاعر هو أشعر الناس، وفي مناسبة أخرى قد يكون شاعر ثان هو أشعر الناس، وفي مناسبة ثالثة قد يكون شاعر ثالث هو أشعر الناس وهكذا.

وتدقيق النظر في استخدام هذه الأحكام، ينتهي بنا إلى أن التناقض الذي تحمله، ما هو إلا تناقض ظاهري، وليس تناقضا حقيقيا، لأن المسألة ترتبط ارتباطا وثيقا بأمرين اثنين متداخلين وغير منفصلين:

الأمر الأول: يرتبط بحالة النشوة المباشرة، واللذة الآنية التي يعيشها الناقد لحظة استماعه إلى هذا الشاعر أو ذاك، فيطلق حكمه قائلا :" أنت أشعر الناس" مثلا، وعندما يستمع إلى شاعر آخر في الجلسة نفسها، أو في جلسة أخرى، ويحصل على لذة جديدة، ونشوة أكبر من نشوته الأولى، فنجده يطلق حكما جديدا يرى فيه أن هذا الشاعر الجديد هو أشعر الناس وهكذا، وهذا ما يمكن أن يسمى بلذة النص، أو لذة الاستماع لأن النص شفوي وليس مكتوبا.

والأمر الثاني: يتصل بطبيعة الأحكام الذوقية والذاتية نفسها، فهي أحكام متغيرة باستمرار وليست ثابتة أبدا، لأنها أحكام آنية ولحظية ومباشرة، ولا تعتمد على معايير فنية واضحة، أو مقاييس علمية دقيقة، ولذلك فهي عرضة للتغيير الدائم.

ففي الخبر الذي بين أيدينا نجد أن النابغة يقدم الأعشى على الخنساء بقوله:" : لولا أن أبا بصير. يعني الأعشى . أنشدني قبلك لقلت: إنكِ أشعر الناس، أنتِ والله أشعر من كل أنثى"، فهو يرى أن سبق الأعشى في الإنشاد، هو الذي قدّمه وأخّر الخنساء، وربما لو أنشدته الخنساء أولا، لقدّمها وأخّر الأعشى، فهل المسألة هي مجرد سبق زمني، ومن يأتي أولا فله الحظوة والسبق والتقديم، ومن يأتي متأخرا فلن يحصل إلا على القليل؟

لا شك في أن الأمر ليس كذلك، لأن الأمر فيما نرى يرتبط كما ذكرنا قبل قليل، بحالة النشوة الآنية التي يمر بها الناقد في أثناء سماعه للشعر، فسماع النابغة للأعشى جعله يصل إلى درجة من اللذة والمتعة والدهشة، ما جعله يراه الأشعر والأفضل، فالجرعة التي حصل عليها النابغة بعد سماعه شعر الأعشى الذي لم يذكر لنا الخبر شيئا منه، أشبعت حاجته إلى الشعر، وجعلته يصل إلى درجة من التخمة الشعرية، جعلته يفضله على الخنساء، وربما على غيرها أيضا من الشعراء الذين كانوا في تلك القبة.

٦- مآخذ النابغة على بيتي حسان بن ثابت:

وجّه النابغة لبيتي حسان بن ثابت الملاحظات النقدية الآتية:

٦-١- استخدامه كلمة (الجفنات) التي تدل على العدد القليل، والأفضل استخدام كلمة (الجفان) التي تدل على الكثرة.

٦-٢- استخدامه عبارة (يلمعن بالضحى) ولو قال: (يبرقن بالدجى) كان أكثر مبالغة.

٦-٣- استخدامه كلمة (يقطرن) وهي أقل مبالغة من الكلمة المقترحة وهي (يجرين) فالجريان أبلغ من القطر.

٦-٤- فخْرُهُ بما وَلَدَ، أي بأبنائه، وعدمُ فخره بمن ولدَه، أي بآبائه وأجداده.

أما الملاحظات الثلاث الأول، فالنابغة يطلب فيها جميعا من حسان أن يبالغ في كلامه، وإذا دققنا النظر في هذه الملاحظات، فإننا سنجد أن النابغة قد أصاب في الملاحظتين الأولى والثالثة، وجافاه الصواب في الملاحظة الثانية.

ففي الملاحظة الأولى: نجد أن في كلمة (الجفان) التي اقترحها النابغة، مبالغة أكثر من كلمة (الجفنات) التي استخدمها حسان، لدلالة الأولى على الكثرة، والثانية على عدد أقل.

وفي الملاحظة الثالثة: نرى أن في الكلمة المقترحة (يجرين) مبالغة أكثر من الكلمة المستخدمة في البيت (يقطرن) لأن الجريان أبلغ من القطر.

أما الملاحظة الثانية: فنجد أن العبارة التي استخدمها حسان في بيتيه وهي (يلمعن بالضحى) أكثر مبالغة من العبارة التي اقترحها النابغة وهي (يبرقن بالدجى) وهذا ما ذهب إليه قدامة بن جعفر في كتابه (نقد الشعر) يقول:

" وأما قول النابغة في (يلمعن بالضحى) وأنه لو قال (بالدجى) لكان أحسن من قوله (بالضحى) إذ كل شيء يلمع بالضحى، فهذا خلاف الحق، وعكس الواجب، لأنه ليس يكاد يلمع بالنهار من الأشياء إلا الساطع النور، الشديد الضياء، فأما الليل فأكثر الأشياء مما له أدنى نور، وأيسر بصيص، يلمع فيه، فمن ذلك الكواكب وهي بارزة لنا، مقابلة لأبصارنا، دائما تلمع بالليل، ويقل لمعانها بالنهار حتى تخفى، وكذلك السُّرُجُ والمصابيح، ينقص نورها كلما أضحى النهار، وفي الليل تلمع عيون السباع لشدة بصيصها، وكذلك اليراع حتى تُخال نارا".[١]

والحق ما رآه قدامة، فاللمعان بالضحى أبلغ من الشروق بالدجى، وذلك لأن أي ضوء بسيط، أو نور خافت، يمكن أن يظهر في الدجى، ويُرى بوضوح، في حين أن الإضاءة في الضحى لا يمكن أن تبدو للناظر إلا إذا كانت قوية ومبهرة

---

(١) نقد الشعر: ٩٣.

وأما الملاحظة الرابعة والأخيرة: فيرى فيها النابغة أن حسانا قد خرج على تقاليد العرب وأعرافهم المتبعة في الفخر، عندما فخر بأبنائه، ولم يفخر بآبائه وأجداده، مخالفا بذلك سنن العرب، وعاداتهم في الفخر، وهذا عيب من العيوب التي تلحق بشعر الشاعر في نظره.

٧- التشكيك في صحة الخبر:

شكك بعض العلماء والباحثين في القديم وفي الحديث بصحة هذا الخبر، وبصحة نسبته إلى النابغة الذبياني، فمن العلماء القدماء نجد أن قدامة بن جعفر يقول في معرض حديثه عن هذا الخبر:" وعلى من أنعم النظر، علم أن هذا الرد على حسان من النابغة كان أو من غيره....".[١]وفي موضع آخر يقول:" وأما قول النابغة أو من قال....".[٢] فعبارتا قدامة تدلان دلالة واضحة على تشكيكه بصحة نسبة هذا الكلام إلى النابغة، وعدم يقينه في ذلك، فهو لا يجزم بنسبة الخبر للنابغة، بل نراه يلمِّحُ إلى إمكانية أن يكون هذا الخبر للنابغة أو لغيره أيضا.

ومن الباحثين المحدثين نجد أن طه أحمد إبراهيم، يشكك أيضا في هذا الخبر، بل ويرفضه ولا يقبله، استنادا لعدة أسباب ذكر منها: أن الجاهلي لم " يعرف جمع التصحيح وجمع التكسير، وجموع الكثرة وجموع القلة، ولم يكن له ذهن علمي يفرق بين هذه الأشياء كما فرّق بينها ذهن الخليل وسيبويه، ومثل هذا النقد لا يصدر إلا عن رجل عرف مصطلحات العلوم، وعرف الفروق البعيدة بين دلالة الألفاظ، وألمّ بشيء من المنطق".[٣]

كما أنه رأى أن هذه الروح في النقد لو كانت "جاهلية لوجدنا أثرها في عصر البعثة يوم تحدى القرآن العرب، وأفحمهم إفحاما، فقد لجؤوا إلى الطعن عليه طعنا عاما فقالوا: سحر مفترى، وقالوا: أساطير الأولين، ولو أن لديهم تلك الروح البيانية لكان من المنتظر أن ينقدوا القرآن على نحوها، وأن

(١) نقد الشعر: ٦١.

(٢) نقد الشعر: ٦٢.

(٣) تاريخ النقد الأدبي عند العرب: ٢٥.

يفزعوا إليها في تلك الخصومة العنيفة التي ظلت نيفا وعشرين عاما، هذا إلى أن تلك الروح في النقد لا أثر لها في العصر الإسلامي، لا عند الأدباء، ولا عند متقدمي النحويين واللغويين".[١]

والذي يبدو لنا أن الأستاذ طه قد ذهب بعيدا في نقد هذا الخبر، وعدم القبول به، فقد غالى كثيرا حتى وصل به الأمر إلى رفض هذا الخبر جملة وتفصيلا، فرأى " أن هذا النقد وجد في أواخر القرن الثالث بعد أن دُوِّنت العلوم، ودُرس المنطق، وعُرف شيء من رسوم البلاغة".[٢]

ولعل تدقيق النظر في كلام الأستاذ طه يجعلنا نرد عليه بعضا من حججه التي ساقها لرفض هذا الخبر، فأما ما يتعلق بمعرفة الجاهلي بجمع الكثرة، وجمع القلة، وجمع التكسير وما إلى ذلك، فالصحيح أن الجاهلي لم يكن يدرك معرفة هذه الأشياء باصطلاحاتها التي عرفت فيما بعد، إلا أن الصحيح أيضا أنه كان يدرك دلالات هذه الكلمات ومعانيها الدقيقة بسليقته اللغوية السليمة، وفطرته الصحيحة، وطبعه القويم.

وأما ما ذهب إليه من أن هذا النقد لا يصدر إلا عن رجل عرف مصطلحات العلوم، وعرف الفروق البعيدة بين دلالة الألفاظ، وألم بشيء من المنطق، فهذا أيضا يجافي الحقيقة من جهة، ويحمّل النص أكثر مما يحتمل من جهة أخرى، إذ لا شيء في الخبر يشير إلى معرفة دقيقة بالمصطلحات، ولا شيء فيه يعكس الإلمام بعلم المنطق، لا من قريب ولا من بعيد.

وأما عن أثر الروح النقدية في الخبر، والتي كان ينبغي أن تظهر في نقدهم للقرآن الكريم، فنحن لا نرى في هذا الخبر ما يدل على روح نقدية متقدمة، أو عمق في المحاجة، ولا نلمح أثرا للمخاصمة، وسوق للأدلة المختلفة على القضايا والظواهر ونحو ذلك، ومن هنا فإنه من الظلم الكبير لهذا الخبر، أن يجعله الأستاذ طه منجزا من منجزات النقد في أواخر القرن الثالث، بعد أن دونت العلوم، ودرس المنطق، وعرف شيء من رسوم البلاغة، فأي منطق في هذا الخبر؟ وأي شيء فيه يدل على الإفادة من رسوم البلاغة، وفنونها التي وُجدت في كتاب " البديع" لابن المعتز مثلا؟ وأين هو الحديث في هذا الخبر عن استعارة أو جناس أو طباق أو غير ذلك مما وجد في أواخر القرن الثالث الهجري؟.

---

(١) نفسه.

(٢) نفسه.

من هنا نجد أن الأستاذ طه قد تجاوز كثيرا في نقده لهذا الخبر، وأسرف إسرافا كبيرا في تحميله أكثر مما يحتمل، فالخبر في معظم ما ورد فيه، يعكس الروح الجاهلية في النقد، ويدل على النقد في أطوار نشأته الأولى، مما بيناه سابقا، وعرضناه مفصلا في الصفحات السابقة.

ولعل مما يدفع إلى الشك بالخبر أيضا اختلاف رواياته، فقد روي الخبر بروايات كثيرة، تختلف فيما بينها قليلا أو كثيرا، فمن تلك الروايات مثلا، رواية ينسب فيها النقد الذي رأيناه للنابغة في هذا الخبر الذي بين أيدينا إلى الخنساء، تقول الرواية:" وكان النابغة الذبياني تُضربُ له قبةٌ حمراءُ في سوق عكاظ، فيجلسُ لشعراء العرب على كرسيٍّ، وتأتيه الشعراءُ فتنشدُهُ أشعارَها، فيفضلُ من يرى تفضيلَهُ، فأنشدَتْهُ الخنساءُ في بعض المواسم قصيدتَها الرائية التي في أخيها صخر، فأعجَبَهُ شعرُها، وقال لها: اذهبي فأنت أشعرُ من كل ذات ثديَيْنِ، ولولا أن هذا الأعمى أنشدني قبلك – يعني الأعشى- لفَضَّلْتُكِ على شعراء هذا الموسم، فإنكِ أشعر الإنس والجن، وكان ممن عرَضَ شعرَهُ في ذلك الموسم حسان بن ثابت، فغضب وقال: أنا أشعرُ منكَ ومنها، فقال: ليس الأمرُ كما ظنَنْتَ، ثم التفت إلى الخنساء، فقال: يا خُناسُ خاطبيهِ، فالتفَتَتْ إليه الخنساء فقالت: ما أجودُ بيتٍ في قصيدتكَ هذه التي عرَضْتَها آنفاً؟ قال: قولي فيها:

لنا الجَفَناتُ الغُرُّ يلْمَعْنَ بالضُّحى وأسيافُنا يَقْطُرْنَ من نجدةٍ دما

فقالت: ضَعَّفْتَ افتخارَكَ وأنْزَرْتَهُ في ثمانية مواضع في بيتكَ هذا، قال: وكيف؟ قالت: قلتَ: (لنا الجفنات) والجفنات ما دون العشر، ولو قلت: (الجفان)، لكان أكثر، وقلتَ: (الغرّ)، والغرة بياض في الجبهة، ولو قلت: (البيض) لكان أكثر اتساعا، وقلت: (يلمعن)، واللَّمْعُ شيءٌ يأتي بعد شيء، ولو قلت: (يشرقن)، لكان أكثر، لأن الإشراق أدْوَمُ من اللمعان، وقلت: (بالضحى)، ولو قلت: (بالدجى)، لكان أكثر طرّاقا، وقلت: (أسياف)، والأسياف ما دون العشرة، ولو قلت: سيوف، كان أكثر، وقلت: (يقطرن)، ولو قلت: (يَسِلْنَ)، كان أكثر، وقلت: (دما)، والدماء أكثر من الدم، فسكت حسان ولم يُجِزْ جوابا".[1]

---

(1) شرح ديوان الخنساء: ٩-١٠.

ففي هذه الرواية نجد أن الخنساء هي التي تقوم بدور الناقد وليس النابغة الذبياني، الذي طلب إليها بما يشبه الاستنجاد، حتى ترد على ادعاء حسان وتحديه له ولها، أو ربما بما يدل على استخفافه بحسان وأنه لا يستحق أن يرد عليه هو بشخصه، فجنّد له الخنساء لكي ترد عليه، ورد الخنساء في هذه الرواية لا يختلف في جوهره عن رد النابغة في الرواية التي اعتمدناها، فهي تطلب منه أن يبالغ فيما يقول، ولا ترى أنه أجاد في فخره لأنه لم يبالغ بالقدر الذي ينبغي، وبما يجب أن يكون عليه الفخر الحقيقي، وأخذت عليه ذلك في ثمانية مواضع كما ورد في الخبر، في حين أن ما شُرح وفُصِّل فيه هو سبعة مواضع، ولعل هذا من سهو الراوي، والإضافات التي نقف عليها في هذه الرواية عن تلك التي رأيناها في نقد النابغة هي: استخدام (البيض) بدلا من (الغر) فهي أكثر اتساعا، واستخدام (سيوف) بدلا من (أسياف) لأن الأسياف ما دون العشرة، و(سيوف) أكثر من ذلك، واستخدام (الدماء) بدلا من (دما) لأنها أكثر.

ونلاحظ كذلك اختلافا في كلمتين أخريين مستبدلتين بين النابغة والخنساء، وهما: كلمة (يَبْرُقْنَ) عند النابغة بدلا من كلمة(يلمعن)، بينما اقترحت الخنساء كلمة (يُشرقْنَ)، وكلمة (يجرين) عند النابغة التي اقترحها بدلا من كلمة (يقطرن)، في حين أن الخنساء اقترحت كلمة (يَسِلْنَ).

ومهما يكن من أمر هذه الاختلافات البسيطة التي لا تختلف فيما بينها اختلافات جوهرية، إذ المقصود منها هو المبالغة في القول، وعدم الاكتفاء بالحد الوسط أو المعتدل من المبالغة، ولكن ما دفعني إلى ذكر هذه الرواية هو اختلاف الرواة في روايتهم لهذا الخبر، هذا الاختلاف الذي يزيد أحيانا بين رواية وأخرى، إلى الحد الذي يتغير فيه الناقد، فيكون النابغة في رواية — وهذا ما اتفقت عليه معظم الروايات– والخنساء في هذه الرواية التي نعرضها، أقول: لعل هذه الاختلافات في الروايات هي أيضا مما قد يدفع بض العلماء والدارسين إلى التشكيك في صحة الخبر من أصله، وإن كان الخبر في مجمله وفي سياقه العام، ينسجم مع حالة النقد في العصر الجاهلي عموما، ولا يفترق عن صورته التي عرفناها في أخبار أخرى قريبة منه في شكلها وفي جوهرها.

الخبر الثاني:

موازنة أم جندب بين امرئ القيس وعلقمة الفحل

النص:

"كان علقمة الفحل ينازع امرأ القيس الشعرَ، فقال كل واحد منهما لصاحبه: أنا أشعر منك، فقال علقمة: قد حكّمت امرأتك أم جندب بيني وبينك، فقال: قد رضيت، فقالت أم جندب: قولا شعراً تصفان فيه الخيل، على رَويٍّ واحد، وقافيةٍ واحدة، فقال امرؤ القيس قصيدته التي أولها:

خليلـــيَّ مُـــرّا بي علـــى أمِّ جُنْـــدُبِ   نُقَـضِّ لُبـاناتِ الفـؤاد المعــذَّبِ[1]

وقال علقمة قصيدته التي أولها:

ذهبـتَ مـن الهِجـران في كـلِّ مَـذْهَبِ   ولم يـكُ حقـاً كـلُّ هـذا التَّجَنُّـبِ

ثم أنشداها جميعا، فقالت لامرئ القيس: علقمة أشعر منك، قال: وكيف؟ قالت: لأنك قلت:

فَلِلسّـــوطِ أُلْهُـــوبٌ ولِلسَّـــاق دِرَّةٌ   وللزّجـر منـه وقْـعُ أهـوجَ مِنْعَـبِ[2]

فَجَهَدْتَ فرَسَكَ بسوْطِكَ وزَجْرِكَ، فَأَتْعَبْتَهُ بِساقِكَ، وقال علقمة:

فَأَدْرَكَهُـــنَّ ثانِيـــاً مـــن عِنانـــهِ   يَمُـرُّ كَمَـرِّ الرَّائِـحِ المتَحَـلِّبِ[3]

فأدرك طريدته وهو ثانٍ من عنانه، لم يضربه بسوطه، ولم يَمْرِهِ[4]بساقه، ولم يزجره، فقال لها: ما هو بأشعر مني، ولكنك له عاشقة، فطلّقها وخلَفَ عليها علقمة، فسمي الفحلَ لذلك".[5]

---

(1) لبانات: ج. لبانة وهي الحاجة.

(2) ألهوب: إذا حركه بساقه ألهب الجري، أي أتى بجري شديد كالتهاب النار، وإذا ضربه بالسوط درّ بالجري. أهوج: الذي لا عقل له. المنعب: الذي يستعين بعنقه في الجري.

(3) المتحلب: المتساقط المتتابع. الرائح: السحاب.

(4) مَرَيْتُ الفرس: إذا استخرجت ما عنده من الجري بسوط أو غيره.

(5) الشعر والشعراء: ١/٢٢٠. وانظر الخبر بروايات مختلفة قليلا في: الموشح: ٢٩. وبيان إعجاز القرآن: ٥٨-٥٩. والأغاني: ٢١/١٤٤-١٤٥. ونصوص المصطلح النقدي لدى الشعراء الجاهليين والإسلاميين: ٣٠٠-٣٠١.

قراءة الخبر:

يمكن أن نقدم بين يدي هذا الخبر الملاحظات النقدية الآتية:

١– المرأة الجاهلية تشارك في الحياة الأدبية والنقدية:

لعل من أبرز ما يلفت النظر في هذا الخبر، هو مشاركة المرأة الجاهلية في الحياة الأدبية والنقدية، والمرأة في الخبر هي أم جندب زوج امرئ القيس، التي وازنت بين شعر لزوجها وشعر لعلقمة الفحل، ووجود أم جندب في هذا الخبر يدل على حضور المرأة الجاهلية في بعض النشاطات الأدبية في العصر الجاهلي، وهذا يعني أنها لم تكن مغيبة كما يحلو للبعض أن يدعي أو يزعم، وليس يخفى في هذا السياق الحضور القوي والفاعل للشاعرة المخضرمة الخنساء، التي تفوقت على كثير من الشعراء الرجال وتغلبت عليهم بحسن شعرها، وإحكام نظمه، وجودة سبكه، وقد مر بنا سابقا في خبر قبة النابغة الذبياني كيف أنها تحدت بعض الشعراء الحاضرين في تلك القبة، وكيف أن النابغة فضلها على الشاعرات النساء.

٢– أم جندب تحدد شروط المنافسة الشعرية بين الشاعرين:

حددت أم جندب شروطا ثلاثة للمنافسة بين الشاعرين، وطلبت إليهما الالتزام بها في الشعر الذي سينظمانه، وتمثلت هذه الشروط بـ:

- **وحدة الموضوع، وهو وصف الخيل.**
- **وحدة الروي.**
- **وحدة القافية.**

والمدقق بهذه الشروط التي وضعتها أم جندب، يشعر بأن الشرط الأول وهو وحدة الموضوع، يمكن أن يكون قد صدر عن امرأة مثل أم جندب، ولعل تحديدها لهذا الموضوع وهو وصف الخيل، يتصل باهتمام كل من الشاعرين المتنافسين بهذا الموضوع في أشعارهما، فامرؤ القيس، وعلقمة، كلاهما من الشعراء المهتمين بوصف الفرس في الشعر الجاهلي، ولهما أشعار كثيرة يتحدثون فيها عن الخيل، ولا سيما امرؤ الذي اشتهر بهذا الموضوع في شعره أكثر من غيره من الشعراء الجاهليين، وكانت له فيه صولات وجولات، ومعان وصور رددها الناس، وأُغرموا بها، وأحبوها، كذلك البيت المشهور الذي يردده الصغار قبل الكبار، ويعرفه العامة قبل الخاصة، وهو قوله في وصف الفرس في معلقته:

مِكَـــرٍّ مِفَـــرٍّ مُقْبِـــلٍ مُـــدْبِرٍ معـــاً   كجُلْمودِ صخرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ من عَلِ

وأما الشرطان الثاني والثالث، وهما: وحدة الروي، ووحدة القافية، فقد يحس المرء بأنهما غريبان عن روح النقد الجاهلي، وعن طبيعة هذا النقد وسماته التي عُرف بها، فالجاهلي لم يكن على علم بمصطلحي: الروي والقافية، وإن كان يدرك دلالتهما بفطرته السليمة، وطبعه الصحيح، والذي يبدو هو أن الرواة فيما بعد، هم من حمّلوا أم جندب ما لا طاقة لها به، ونسبوا إليها ما لم تقله، بإضافتهم هذه المصطلحات إلى هذا الخبر، وهذا ما حمل بعض الباحثين على الارتياب في صحة هذا الخبر، والتشكيك في نسبته إلى العصر الجاهلي، ومن هؤلاء الباحثين طه أحمد إبراهيم، الذي وضع عددا من الأسباب التي إن لم تحمل على رفض هذا الخبر جملة، فهي تحمل على رفض كثير منه، يقول:

" في قصيدتي علقمة وامرئ القيس توافق في غير بيت، وفيهما مشاركة في كثير من الألفاظ والعبارات والمعاني، ولو جعلنا قصيدة امرئ القيس أصلا، إذ إنه الذي أنشد أولا، كانت قصيدة علقمة تكرارا لها في أبيات بتمامها وفي شطرات، والحكم بتفضيله على امرئ القيس يكون إذا غير معقول، لأن علقمة كرر ما قاله صاحبه...."[1] ثم يذكر" أن امرأ القيس عُرف بوصف الخيل، وشُهر بذلك دون الجاهليين، وهو في المعلقة، وفي قصيدته اللامية الأخرى لا يُجارى في هذا الصدد، ولعل ذلك ما حمل عبدالله بن المعتز على أن ينكر هذه القصيدة فيما أنكره من شعر امرئ القيس، وذلك محتمل جدا، فهي وإن جرت على مذهبه الشعري، خالية من طابعه الذي نحسه في شعره الصحيح، ثم إن الموازنة على شريطة الجمع بين ثلاثة أشياء، فكرة على شيء من الدقة لا تتلاءم مع الروح الجاهلية في النقد الأدبي، هذا إلى أننا نرتاب في أن جاهليا يدرك الفرق بين الروي والقافية، ونرتاب في أن هذه الألفاظ تستعمل في العصر الجاهلي بمعناها الاصطلاحي".(

وفي هذا الذي ذكره الأستاذ طه إبراهيم نظر، وأرى أنه أصاب في بعض ما ذهب إليه من ملاحظات نقدية، وجافاه الصواب في بعضها الآخر، فأما الذي أصاب فيه، فهو رأيه في أن الجاهلي لا يدرك الفرق بين الروي والقافية بمعناهما الاصطلاحي، وهذا صحيح تماما وذلك لأن هذه المصطلحات وغيرها من مصطلحات علم العروض، إنما وُضعت فيما بعد عندما اخترع الخليل بن أحمد الفراهيدي علم العروض، ووضع أسسه ومبادئه وأصوله.

([1]) تاريخ النقد الأدبي عند العرب:٢٧.

وأما الذي لم يصب فيه، فهو توسيعه دائرة الموازنة لتشمل قصيدتي الشاعرين، والخبر واضح تمام الوضوح، وليس فيه ما يشير إلى مثل هذه الموازنة، فهو يقصر الموازنة على بيتين فقط، ولم يتطرق لا من قريب ولا من بعيد إلى الموازنة بين قصيدتين كاملتين.

ثم كيف يسوغ لنا أن نعد قصيدة امرئ القيس هي الأصل بسبب إنشاده أولا، وأن علقمة تأثر به في قصيدته، وحذا حذوه في بعض أبياتها، فنحن إن صدقنا هذا الافتراض، فهذا يعني أن الشاعرين كليهما قد ارتجلا القصيدتين ارتجالا، واستجابا لطلب أم جندب في الحال، فأنشد امرؤ القيس أولا، وتبعه علقمة فأنشد ثانيا، فأخذ منه ما أخذ، وهذا ما نستبعد حصوله، ولا سيما أن القصيدتين تعدان من عيون الشعر عند الشاعرين، وقد جعل ابن سلام الجمحي قصيدة علقمة إحدى ثلاثة روائع جياد له، لا يفوقهن شعر،[١] وهذا يدفعنا إلى رفض فرضية الارتجال، وهو ما ذهب إليه محققا ديوان علقمة الفحل أيضا إذ يقولان:" ثم إن القصيدتين طويلتان وبارعتان، ومن المستبعد أن يقولهما الشاعران على البديهة".[٢]

وأغلب الظن أن الخلط الموجود في بعض أبيات القصيدتين، والتشابه في بعض الألفاظ والعبارات والمعاني، إنما كان من عمل الرواة فيما بعد، ومن الخلط الذي يمكن أن يكونوا قد أحدثوه في القصيدتين، فأضافوا ما أضافوا، وزادوا ما زادوا، إذ لا يعقل أن يتعمد علقمة أخذ أبيات من قصيدة امرئ القيس كما يزعم الأستاذ طه، وهو داخل في منافسة مباشرة مع خصمه أمام أم جندب، والأقرب إلى التحليل العقلي الصحيح، هو أن الشاعرين نظما قصيدتيهما كلا على حدة، ثم أنشداها أمام أم جندب، وثمة افتراض آخر نميل إليه أكثر، ونراه الأقرب إلى العقل الصحيح، والمنطق السليم، وهو أن الشاعرين قالا البيتين السابقين موضوع الموازنة ارتجالا، ثم بنى كل واحد منهما قصيدته بعد ذلك وأتمها.

وأما أن نفضل امرأ القيس على علقمة لأنه عرف بوصف الخيل، وشُهِر بذلك دون الجاهليين كما يزعم الأستاذ طه، ففي هذا شيء من العسف والظلم والتجني ومجافاة الصواب أيضا، لأن الموازنة التي بين أيدينا هي موازنة بين بيتين اثنين، وليست بين شعرين لشاعرين، ولا شك في أن الموازنة ستختلف فيما لو

(١) انظر: طبقات فحول الشعراء: ١٣٩/١.

(٢) ديوان علقمة الفحل: ٨.

كانت بين شعر امرئ القيس جملة، وشعر علقمة جملة، أو بين شعرهما الذي يتناول وصف الخيل والصيد والطرديات.[١]

٣- أهمية المتلقي في تقويم الشعر والحكم عليه:

يتضح فيهذا الخبر إدراك الشاعر أهمية المتلقي في تذوق الشعر والحكم عليه، فالشاعر لا يكتب لنفسه وإنما يكتب للآخر، هذا الآخر الذي قد يكون قارئا عاديا، وقد يكون قارئا ناقدا، وفي الحالتين كلتيهما فإن لهذا الآخر أهمية كبيرة في تلقي الشعر، ومن هنا أيضا يأتي احتكام الشاعرين: امرئ القيس، وعلقمة الفحل، إلى أم جندب إيمانا منهما بدور المتلقي في تقويم الشعر والحكم عليه جودة أو رداءة.

٤- اهتمام القوم بالموازنة بين الشعراء:

يتضح في هذا الخبر وفي غيره من الأخبار التي عرضناها سابقا، أو التي سنعرضها لاحقا، اهتمام الناس بالموازنة بين الشعراء، فقد شكلت فكرة الموازنة والمفاضلة بين الشعراء هاجسا لدى الناس على مر العصور، فهم مغرمون دوما بالموازنة بين هذا الشاعر وذاك، ومولعون كثيرا بالمفاضلة بين قصيدة وأخرى، والموازنة في هذا الخبر الذي بين أيدينا تضمنت موازنة بين بيتين في وصف الخيل لكل من امرئ القيس وعلقمة الفحل، وانتهت بحكم نقدي قضى بتفضيل ثانيهما على أولهما.

٥- علقمة يلقب بالفحل لتفوقه على امرئ القيس:

يشير الخبر إلى أن علقمة الفحل لُقِّب بهذه الصفة التي اقترن اسمه بها، لأنه خلف على أم جندب بعد أن طلقها زوجها امرؤ القيس، وهذا يعني أن الفحولة هنا ليست فحولة شعرية، وإنما هي فحولة تأخذ منحى جنسيا واجتماعيا، ولكن ثمة من يقول: إن السبب في تسمية علقة بالفحل بهذا الاسم، إنما كان للتفريق بينه وبين رجل في قومه يقال له "علقمة الخَصِيّ"[٢]، ويمكن أن يكون وراء هذا اللقب سبب آخر وهو تفوقه على امرئ القيس في هذا الخبر، وذلك لأن كل من عارض شاعرا فغلبه يسمى فحلا، كما أن الشعراء الذين غلبوا بالهجاء من هاجاهم كانوا يلقبون بالفحول.

---

(١) انظر: الموازنة في النقد العربي القديم حتى القرن الخامس الهجري: ٧١.

(٢) انظر: الشعر والشعراء: ٢١٩/١.

٦- أم جندب لا تفضل شعرا على شعر، بل تفضل فرسا على فرس:

إن التدقيق في الخبر، وفي السبب الذي جعل أم جندب تفضل علقمة الفحل على زوجها امرئ القيس، يرى أن هذا التفضيل لم يكن في حقيقته تفضيل شعر على شعر، أو تفضيل شاعر على شاعر، بل كان تفضيلا لفرس على فرس، بدليل قولها عندما سألها امرؤ القيس عن سبب تفضيلها علقمة عليه:" قالت: لأنك قلت:

فللسّوطِ أُلهوبٌ..... البيت

فجهدت فرسك بسوطك وزجرك، فأتعبتَه بساقك، وقال علقمة:

فأدركهنّ ثانياً ..... البيت

فأدرك طريدته وهو ثانٍ من عنانه، لم يضربه بسوطه، ولم يمْرِهِ بساقه، ولم يزجره".

فهي ترى أن فرس زوجها امرئ القيس كسول بليد، لا يدرك طريدته، ولا يستجيب لفارسه إلا بعد أن يضربه بسوطه، ويستحثه بساقيه، ويهيجه بالزجر، وهذه مواصفات فرس لا يثير الإعجاب، ولا يبعث على الرضى والاستحسان، لا بل إنه على العكس من ذلك تماما، فهو يثير من السخط والاشمئزاز، أضعاف ما يثير من الارتياح والقبول، بينما رأت أن فرس علقمة نشيط وقوي، يدرك هدفه بسرعة الريح، لا يعيقه في ذلك شيء، ولا يقلل من سرعته شدُّ رَسَنِهِ إلى الخلف، وهذه نعوت فرس أصيل، يثير الإعجاب، ويبعث على الاستحسان، ولو أن هذين الفرسين عُرضا للبيع، لكان أدنى رجل معرفةً بالخيل، سيختار فرس علقمة، ويفضله على فرس امرئ القيس، لِمَا عرفه فيه من صفات حسنة، وسيرغب عن فرس امرئ القيس ويبتعد عنه لما رآه فيه من تقاعسه وعجزه وبلادته، ومن هنا فإن حكم أم جندب، وتفضيلها علقمة على زوجها، كان في حقيقته تفضيلا لفرس على فرس، ولم يكن تفضيلا لشعر على شعر، أو تفضيلا لشاعر على آخر.

ومما يدعم هذا الرأي الذي نقوله ونأخذ به، وهو أن أم جندب لا تفضل شعرا على شعر، وإنما تفضل فرسا على فرس، ما جاء في رواية أخرى للخبر، إذ تقول أم جندب ردا على سؤال امرئ القيس لها عن سبب تفضيلها علقمة عليه:" **فرس** ابن عبدة أجود من **فرسك**، قال: ولماذا؟ قالت: سمعتُكَ زجرْتَ وضربتَ وحركتَ، وهو قولك: (وذكرت البيت)، وأدرك **فرس** علقمة طريدته ثانيا من عنانه، وهو

قوله: (وذكرت بيت علقمة)" [١] وهذا يدل على أن اهتمامها يتجه إلى الفرس في كل من البيتين، وإلى صفاته التي أطلقها كل منهما على فرسه، من دون أن نلمح أي اهتمام بجوانب فنية في البيتين كاللغة والسبك والصورة ونحو ذلك من ملاحظات فنية، وإن بشكل بدائي، وبإشارات وتلميحات عامة دون الغوص في تفصيلات لا تسمح بها طبيعة النقد في تلك المرحلة.

٧- أم جندب لا تلتفت إلى أمور فنية في موازنتها:

واستكمالا للنقطة السابقة، فإن من الواضح أن أم جندب لم تلتفت في موازنتها إلى جوانب فنية في بيتي امرئ القيس وعلقمة، وإنما اقتصرت على مضمون البيتين فقط، و اكتفت بتناول الصورة الحسية التي رسمها كل شاعر لفرسه، ثم انتهت إلى حكمها النقدي الذي قضى بتفضيل علقمة على زوجها، وهذا نقد ينسجم مع الروح الجاهلية في النقد، ويعكس الطبيعة الحقيقية لهذا النقد الذي لم يكن يعنى فيه أصحابه بالحديث عن بعض القضايا الفنية في الشعر، كالصياغة الفنية والأسلوب وجماليات اللغة وغير ذلك مما صار النقاد يتحدثون عنه في العصور التالية، ومما لم يكن موجودا في نقد العصر الجاهلي.

٨- الموازنة في الخبر بين بيتين وليس بين قصيدتين:

إن جوهر الموازنة، وأساس المفاضلة في هذا الخبر، قائم على الموازنة بين البيتين اللذين وصف فيهما الشاعران فرسيهما، ولم تكن الموازنة بين القصيدتين جميعا كما قد يرى البعض، وهذا واضح في نص الخبر وضوحا لا يقبل اللبس، ولا يبعث على الحيرة في الفهم، فأم جندب فضلت علقمة على امرئ القيس في البيتين اللذين وردا في الخبر فقط، ولم تتجاوز ذلك إلى ما هو أبعد فتوازن بين القصيدتين جميعا، وأي رأي يرى غير هذا الرأي، نرى فيه تحميلا للنص أكثر مما يحتمل، وهذا لا يجوز في قراءة أي نص نقدي أو غير نقدي، إذ لا ينبغي أن نشتط في التأويل، ونبالغ في التفسير، فنحمّل النص أشياء لا يحتملها نصُّه ولا تتضمنها عبارته.

٩- الأحكام النقدية في الخبر:

تضمّن الخبر الأحكام النقدية الآتية:

---

[١] ديوان امرئ القيس: ٤٠.

٩-١- ادعاء كل من الشاعرين: امرئ القيس، وعلقمة، بأنه أشعر من الآخر بقول كل منهما للآخر: **"أنا أشعر منك"**.

٩-٢- حكم أم جندب لعلقمة ضد زوجها امرئ القيس، بقولها:

"علقمة أشعر منك".

٩-٣- رفض امرئ القيس حكم زوجه أم جندب، واتهامه لها بعشق منافسه وخصمه علقة بقوله:

" ما هو بأشعر مني ولكنك له عاشقة".

١٠- سمات الأحكام النقدية في الخبر:

١٠-١- الذاتية:

نلاحظ في هذا الخبر حضور الجانب الذاتي والشخصي في أحكامه النقدية، وقد برزت هذه الذاتية في ناحيتين: **الأولى:** في موقف كل شاعر من الآخر، فكل واحد منهما يرى أنه أشعر من الآخر، فامرؤ القيس يرى أنه أشعر من علقمة، وعلقمة يرى أنه أشعر من امرئ القيس، ومن هنا كان احتكامهما لأم جندب، **والثانية:** في رفض امرئ القيس حكم زوجته بتفضيل علقمة عليه، بقوله: (ما هو بأشعر مني ولكنك له عاشقة)، مُتّهماً إياها بالتحيّز له، وبأنها كانت له عاشقة، وهذا هو السبب الحقيقي برأيه الذي دفعها لتقديمه عليه، ومن هنا كان قراره بتطليقها ليخلف عليها علقمة ويسمى الفحل لذلك، ومن هنا أيضا فإن حكم أم جندب لم يكن موضوعيا ولا عادلا من وجهة نظر امرئ القيس، لأن الدوافع الكامنة وراءه، هي دوافع ذاتية وشخصية محضة، تتصل بخلافات عميقة كانت بينه وبين زوجه؛ وهي خلافات تحدثنا عنها رواية أخرى للخبر يرويها الأصمعي، ويتضح فيها أن الأمور لم تكن على أحسن حال بين امرئ القيس وزوجته أم جندب، بل كان بينهما من الخلافات والمشاكل ما قد يدفع بالزوجة إلى كراهية الزوج وبغضه، ومن هنا فقد يكون هذا هو السبب الحقيقي وراء انحياز أم جندب لعلقمة ضد زوجها، وتفضيله عليه، تقول الرواية:" حدث الأصمعي أن امرأ القيس حين هرب من المنذر بن ماء السماء، سار إلى جبلي طيء: أجأ وسلمى، فأجاروه، فتزوج بها أم جندب، وكان امرؤ القيس مفركا مبغضا، فبينما هو ذات ليلة نائم معها، إذ قالت له: قم يا خير الفتيان، فقد

أصبحْتَ، فلم يقم، فكررت عليه فقام، فوجد الفجر لم يطلع بعد، فقال لها ما حملك على ما صنعتِ؟ فسكتت عنه ساعة، فألح عليها، فقالت: حملني أنك ثقيل الصدرة، خفيف العجزة، سريع الهراقة، بطيء الإفاقة، فعرف من نفسه تصديق قولها، فسكت عنها، فلما أصبح أتاه علقمة بن عبدة التميمي وهو قاعد في الخيمة وخلفه أم جندب، فتذاكرا الشعر، فقال امرؤ القيس: أنا أشعر منك، وقال علقمة: بل أنا أشعر منك، فقال: فقل وأقول، وتحاكما إلى أم جندب، فقال امرؤ القيس:.....".[1] إلى آخر الخبر.

١٠-٢- التعليل الطارئ:

لم يكن النقد الشفوي يعنى بتعليل الأحكام النقدية عموما، ولهذا الأمر أسبابه الموضوعية، والتي لعل من أهمها غياب النص المكتوب الذي يمكّن الناقد من فحص النص وتأمله وتدقيق النظر فيه ونحو ذلك من متطلبات النقد الموضوعي، إضافة إلى غياب الأدوات التي تعين الناقد على قراءة النصوص وتعليل الأحكام، وغير ذلك من أسباب أشرنا إلى بعضها سابقا، وإذا وقفنا على تعليل هنا أو تعليل هناك، فلهذا التعليل أسبابه التي علينا أن نبحث عنها ونحددها، ومع ذلك يبقى التعليل طارئا وعابرا وليس أصيلا أو راسخا في النقد الشفوي، ففي هذا الخبر الذي بين أيدينا، نجد أن أم جندب قد اضطرت إلى بيان سبب تفوق علقمة وتفضيله على امرئ القيس، عندما سألها هذا الأخير عن سبب هذا التفضيل، فعلّلت ذلك بأن امرأ القيس قد أجهد فرسه بسوطه وزجره، وأتعبه بساقه، في حين أن علقمة أدرك طريدته وهو ثان من عنان فرسه، لم يضربه بسوطه، ولم يمره بساقه، ولم يزجره، وكما رأينا قبل قليل، فإن هذا التعليل الذي ذكرته أم جندب لتفضيل علقة على امرئ القيس، ما هو في حقيقته وفي جوهره إلا تفضيل فرس على فرس، وليس تفضيل شعر على شعر.

١٠-٣- استخدام صيغة اسم التفضيل (أفعل):

وهي الصيغة الأكثر استخداما وشيوعا وذيوعا في مرحلة النقد الشفوي –كما سبق أن ذكرنا- وهي صيغة تفيد التفضيل والتعميم ولكن بدرجات ومراتب، وليس بدرجة واحدة، أو مرتبة واحدة، فعندما يستخدم الناقد هذه الصيغة ليفضل شاعرا ما على الشعراء جميعا، أو على الناس كلهم، أو على العرب كافة، فيستخدم عبارة: أشعر الشعراء، أو أشعر الناس، أو أشعر العرب، أو ما إلى ذلك من هذه

(١) ديوان امرئ القيس: ٤٠.

العبارات، فيكون قد وصل إلى أقصى درجات التفضيل والتعميم، وأعلاها مرتبة، ولكن قد يضيق التعميم والتفضيل قليلا، فلا يصل إلى هذه الدرجة، ولا يبلغ هذه المنزلة، كالذي نجده في الأحكام النقدية في هذا الخبر، إذ إن التفضيل اقتصر على تفضيل شاعر على شاعر، ولم يتجاوز ذلك إلى تفضيل شاعر على الشعراء جميعا، وفي هذا شيء من التحديد الذي ينبغي أن يُراعى في إطلاق الأحكام النقدية عموما، وفي هذه الصيغة خصوصا، إذ كلما كان التعميم أقل، كان الحكم أكثر دقة.

١١- المعادل الموضوعي:

المعادل الموضوعي في الشعر هو أن يختار الشاعر عنصرا من عناصر الطبيعة المحيطة به، طائرا أو حيوانا ..... ومن ثم يسقط تجربته الذاتية عليه.

والمعادل الموضوعي هو عنصر جوهري في الشعر الجاهلي، ويفيد كثيرا في دراسة هذا الشعر وفهمه، وقراءته قراءة نقدية تغوص في البنية العميقة لهذا الشعر، ولا تكتفي بملامسته من خارجه ملامسة سطحية، فكثير من أسماء الحيوانات التي ترد في أشعار الشعراء الجاهليين، ليست عناصر خارجية بعيدة عن ذات الشاعر، أو منفصلة عنه، وإنما هي في جوهرها وفي حقيقتها صورة عن ذات الشاعر، أو بمعنى أدق: هي معادل موضوعي لذات الشاعر، وقناع فني يختبئ الشاعر وراءه ليعبر من خلاله عن أحاسيسه ومشاعره، ويعبر عن ذاته بحالاتها المختلفة، وأطوارها المتبدلة، من خلال ذلك المعادل الموضوعي.

وإذا أردنا أن ننظر إلى صورة الفرس في الخبر الذي بين أيدينا، على أنه معادل موضوعي للذات الشاعرة، عند كل من امرئ القيس وعلقمة، ففرس امرئ القيس صورة عنه، وفرس علقمة صورة عنه، أقول: إذا رأينا هذه الرؤية، وتبنينا هذا الرأي، جاز لنا أن نعذر أم جندب فيما ذهبت إليه من تفضيل علقمة على زوجها، انطلاقا من تفضيلها فرس علقمة القوي والنشيط، على فرس امرئ القيس البليد والكسول.

الخبر الثالث:

حكومة ربيعة بن حذار الأسدي

النص:

" تحاكَمَ الزبرقانُ بن بدر، وعمرو بن الأهتم، وعبْدة بن الطبيب، والمخبّل السعدي، إلى ربيعة بن حُذار الأسدي في الشعر، أيهم أشعر؟ فقال للزبرقان: أما أنت فشعرُكَ كلحْمٍ أُسخنَ، لا هو أُنْضِجَ فأُكِلَ، ولا تُرِكَ نيّئاً فيُنتَفَعُ به، وأما أنتَ يا عمرو، فإن شعرَكَ كَبُرُودٍ حِبَر، يتلألأُ فيها البصر، فكلما أُعيدَ فيها النظر، نقصَ البصر، وأما أنت يا مخبَّل، فإن شعرك قصَّرَ عن شعرهم، وارتفعَ عن شعرِ غيرِهم، وأما أنت يا عبْدة، فإن شعرك كمَزادةٍ أُحكِمَ خَرْزُها، فليس تَقْطُرُ، ولا تُمْطِر".[1]

---

(1) الموشح: ١٠٧-١٠٨. والبرود الحبر: أثواب يمنية مخططة. المزادة: الراوية. وانظر الخبر برواية مختلفة قليلا في: الأغاني: ١٤٥/٢١. إذ نجد فيه الشاعر علقمة الفحل بدلا من الشاعر عبدة بن الطبيب.

قراءة الخبر:

١- الاهتمام بالموازنة بين الشعراء:

هذا الخبر هو نص في الموازنة بين أربعة شعراء، والمفاضلة فيما بينهم، وهم: الزبرقان بن بدر التميمي، وعمرو بن الأهتم، وعبدة بن الطبيب، والمخبل السعدي، والناقد الموازن هو ربيعة بن حذار الأسدي الذي ارتضاه الشعراء الأربعة ليكون حكما بينهم، ومن هنا فإن هذا الخبر يعكس الاهتمام بالموازنة وسيلةً من وسائل قراءة الشعر، وأداةً من الأدوات التي كان يعتمد عليها القوم في ممارساتهم النقدية، ومفاضلاتهم بين الشعراء، حتى غدت هاجسا لهم في حياتهم النقدية، إذ لا يكاد يخلو خبر من الأخبار النقدية في المرحلة الشفوية من الموازنة بين شاعر وآخر، أو بين شعر وشعر.

وإذا كانت فكرة الموازنة بين شاعر وشاعر، أو بين شعر وشعر، حاضرة بقوة في الأخبار النقدية التي مرت معنا سابقا أو في الأخبار التي ستأتي لاحقا، وكانت واحدة من الملامح الأساسية في تلك الأخبار، فإنها في هذا الخبر مختلفة، لأنها لم تكن أمرا طارئا أو عرضيا، بل شكلت الأساس المتين والقوي والوحيد الذي قام عليه الخبر، وهذا يعني أن هذا الخبر قائم بكليته على فكرة الموازنة، هذه الموازنة التي اعتمدت على تحديد أهم ما يميز شعر كل واحد من الشعراء الأربعة.

٢- الاهتمام بالمتلقي:

يعكس هذا الخبر أيضا وعي الشعراء بأهمية المتلقي في العملية الشعرية، فهو الحَكَمُ الحقيقي على إنتاج الشعراء، فالشاعر أيُّ شاعر لا يكتب لنفسه، وإنما يكتب للآخر، أو للجمهور، أو للمتلقي، سمِّهِ ما شئت، ومن هنا فإن هذا الآخر ناقدا كان أم شاعرا، قارئا واعيا أم قارئا عاديا، هو المعني أولا وأخيرا بأي إنتاج شعري، ومن ثم بالحكم عليه جودة أو رداءة، استحسانا أو استقباحا.

٣- إغفال النماذج الشعرية في الخبر:

لم يذكر الناقد في هذا الخبر، وهو ربيعة بن حذار الأسدي، أمثلة أو نماذج محددة من أشعار الشعراء الذين وازن بينهم، كما كان يحدث في معظم الأخبار النقدية في العصر الجاهلي، بل اكتفى بملاحظات نقدية عامة، تناولت كل واحدة منها شعر الشاعر كله، وهذا يعني أن الأحكام النقدية التي أطلقها ربيعة، هي أحكام نقدية تناول كل واحد منها شعر شاعر من الشعراء، وهذا يعني أيضا أن الموازنة بين

الشعراء لم تكن بين نماذج محددة من أشعارهم، بل كانت بين أشعارهم جملة لا تفصيلا، وهذا يفترض بالضرورة اطلاعه على أشعار هؤلاء الشعراء جميعا، ومعرفته بها، حتى يتمكن من إطلاق هذه الأحكام التي تناولت أشعارهم.

٤- الأحكام النقدية في الخبر وسماتها الرئيسية:

يمكن القول: إن هذا الخبر النقدي الذي بين أيدينا، هو عبارة عن جملة من الأحكام النقدية، التي أطلقها ربيعة بن حذار الأسدي، متناولا في كل واحد منها شعر شاعر من الشعراء الأربعة، ومن هنا فقد شكلت هذه الأحكام جملة الخبر، ولحمته وسداه، وليس فيه أي شيء آخر.

وأما سمات هذه الأحكام النقدية، فيمكن تحديدها بما يلي:

٤-١- عامة: ليس فيها شرح أو تفصيل، وتتصل بشعر الشاعر كله جملة لا تفصيلا.

٤-٢- ذاتية: تعبر عن رأي صاحبها فقط، وتعكس موقفه الشخصي من أشعار الشعراء الذين يتناولهم بالنقد والموازنة.

٤-٣- ذوقية: تعبر عن ذوق من أطلقها، ومن ثم فهي ليست ملزمة لغيره، إذ قد لا يتفق الآخرون معه في هذه الأحكام، وقد يتفقون معه في بعضها دون بعضها الآخر.

٤-٤- غير معللة: فالناقد لا يعلل أحكامه النقدية التي يطلقها، والتي يتناول فيها أشعار الشعراء، ولا يشرح الأسباب التي تقف وراء هذا الحكم أو ذاك.

٤-٥- غير واضحة في مؤداها أو في دلالتها: وذلك لأنها عامة وذاتية وذوقية وغير معللة، ومن ثم فهي لا تعتمد على مقاييس فنية واضحة، أو على معايير علمية دقيقة، ولهذا فإن أي محاولة لشرح هذه الأحكام، أو وضع تفسير لها وفهمهما، يبقى مجرد محاولة تعتمد على الظن والتخمين من جهة، وعلى الاستنتاج من جهة أخرى، ولهذا فإن التحديد الدقيق للمراد من هذه الأحكام أمر صعب المنال، ومسألة بعيدة الإدراك.

٤-٦- متأثرة بالبيئة المحيطة:

ولعل هذه السمة هي أهم ما يميز هذا الخبر من الأخبار السابقة كلها، إذ يتضح فيه أثر البيئة في حياة القوم عموما، وفي نقدهم وتقويمهم للشعر خصوصا، فقد كانوا يستمدون منها مصطلحاتهم وأدواتهم ومفهوماتهم المختلفة، ويعتمدون عليها في الموازنة بين الشعراء، وفي تقويمهم للحركة الشعرية من حولهم، فاللحمُ، والبرودُ الحِبَرُ، والمزادةُ التي أُحكمَ خرْزُها فليس تقطر ولا تمطر، كلها عناصر موجودة في البيئة المحيطة بالناس في العصر الجاهلي.

ويبدو أن تأثر القوم بهذه البيئة كان كبيرا جدا، ولم يقتصر على خبر أو عدة أخبار، بل تجاوز ذلك ليغدو سمة واضحة من سمات نقدهم وشعرهم على حد سواء، وكذلك في تأصيلهم للعلوم المختلفة المتعلقة بالشعر، فشعرهم صورة أمينة عن بيئتهم بكل أبعادها وتفاصيلها، وكثير مما في هذا الشعر يصور تلك البيئة بأدق دقائقها، فيرسمها بالكلمات معجبا بها حينا، ويستعين بها في التعبير عن نفسه وعما يحيط به من مشكلات وهموم وقضايا حينا آخر، وكذلك الأمر بالنسبة لنقدهم، الذي كان هو الآخر شاهدا على تأثر كثير ممن مارس النقد بهذه البيئة وبعناصرها المختلفة، إذ لم تكن المصطلحات النقدية متاحة بين أيديهم بعد، فذلك لن يكون متاحا قبل مرور زمن ليس بالقصير، عندما يشتد عود النقد، ويبدأ بالنضج والازدهار بدءا من القرن الثالث الهجري وما تلاه من قرون، ومن هنا فإن الخيارات التي كانت متاحة أمام الناس في الفترة الشفوية قليلة ويسيرة، ولذلك كان لا بد لهم من الاعتماد على هذه البيئة، يستمدون منها مصطلحاتهم ومفهوماتهم النقدية البسيطة، التي تعبر بأمانة وصدق عن الواقع النقدي وقتئذ.

ولعل من الأمثلة البارزة على هذا التأثر مصطلح (**الفحولة**) الذي ربما تعود بداياته إلى الخبر المروي عن أم جندب، والذي وقفنا عليه سابقا، وموازنتها بين شعر لزوجها امرئ القيس، وشعر لعلقمة الفحل الذي عرف بعد ذلك **بعلقمة الفحل** لأن أم جندب حكمت له ضد زوجها الذي طلقها فخلف عليها علقمة، ولذلك سمي الفحل.

ويبدو أن الناس أُعجبوا بهذا المصطلح، وأغرموا به، فها هو الأصمعي (٢١٦هـ) مثلا يعتمد عليه في الكتيب المنسوب إليه والمعروف بـ (فحولة الشعراء) ليصف به الشعراء، ويصنفهم إلى فحول أو غير فحول تبعا لمقاييس خاصة به، وهو ما سنأتي على التفصيل فيه لاحقا، ومن الذين تابعوا الأصمعي بالاهتمام بمصطلح الفحولة كذلك، ابن سلام الجمحي (٢٣١هـ) في كتابه الذي سماه (طبقات فحول

الشعراء)؛ الأمر الذي يعكس احتفالهم بهذا المصطلح المستمد من بيئتهم المحيطة بهم، واعتمادهم عليه في تصنيف الشعراء والحكم عليهم.

ولا ينبغي أن يغيب عن ذهننا في هذا السياق، ما فعله الخليل بن أحمد الفراهيدي عندما وضع أصول علم العروض، إذ استمد كثيرا من مصطلحات هذا العلم من البيئة المحيطة من حوله، وهذا ما ذكره أحد الباحثين مشيرا إلى أثر البيئة في وضع المصطلح يقول:" ومما يلاحظ أن للبيئة البدوية التي كان يعيشها العرب في ذلك الوقت أثرا كبيرا على المصطلح منذ الخليل بن أحمد الفراهيدي، الذي ربط بين المصطلح العروضي وبيت الشعر فقال: البيت، الوتد، السبب، الإيطاء، السناد، والإكفاء وغير ذلك"(١) وهذا يدل دلالة واضحة وأكيدة على مدى تأثر الناس ببيئتهم المحيطة بهم.

وقد أتى بعض النقاد على الأحكام النقدية في هذا الخبر فوصفها بقوله:" وهذه الأحكام من ربيعة بعيدة عن التفصيل، وعن الوضوح، وعن الدقة، وعن الاستشهاد، وعن الدليل، لأنها أوصاف عامة، ولكنها تنم عن ذوق يحاول التمييز بين الجيد والرديء...". (٢)

٥- محاولة لقراءة الأحكام النقدية في الخبر وتفسيرها:

سنحاول أن نجتهد في تقديم قراءة نقدية للأحكام النقدية التي تضمنها الخبر، وهي قراءة تعتمد – كما أسلفت قبل قليل- على الظن والتخمين من جهة، وعلى الاستنتاج من جهة أخرى، مستفيدين في ذلك من لغة تلك الأحكام، والعناصر التي ذكرها الناقد في أحكامه والتي استمدها من بيئته المحيطة به، وكذلك من التشبيهات التي لجأ إليها ليصف من خلالها أشعار الشعراء، ومع ذلك فإننا لا ندعي، ولا يحق لنا أن ندعي أبدا، أن ما سنقوله هو الصواب عينه، وأن ما نذهب إليه هو الحق ذاته، وأنه هو ما أراده صاحبه، ورمى إليه في نقده، وجل ما سنفعله هو مجرد قراءة قد يوافقنا عليها الآخرون فيرون ما رأينا، وقد يخالفوننا فيرون خلاف ما رأينا.

---

(١) أثر البيئة في المصطلح النقدي القديم: ٢٣٥-٢٣٦. ضمن كتاب : (قراءة جديدة لتراثنا النقدي) المجلد الأول- الصادر عن النادي الأدبي الثقافي بجدة- ١٩٩٠.

(٢) في النقد الأدبي القديم عند العرب: ٣٨.

أما رأيه في شعر الزبرقان، وأن هذا الشعر كلحم أسخن، لا هو أنضج فأكل، ولا ترك نيئا فينتفع به، فقد يعني به أنه عندما يتناول المعنى الشعري، فإنه لا يستقصيه من جميع جوانبه، ولا يستوفي عناصره كاملة، وهو بذلك يقطع الطريق على غيره من الشعراء في تناول هذا المعنى، وربما لو لم يفعل ذلك، ولم يبادر إلى هذا المعنى أو ذاك، لوجدت من الشعراء من يقدر على تناول المعنى تناولا أفضل، والتعبير عنه بطريقة أحسن، ولكن أحدا منهم لن يفعل ذلك، حتى لا يُتهم بالأخذ منه، أو الاحتذاء حذوه.

وأما رأيه في شعر عمرو، وأنه كبرود حبر، يتلألأ فيها البصر، فكلما أعيد النظر، نقص البصر، فقد يكون المقصود بذلك أن شعره يبهر قارئه عند قراءته لأول مرة، ويثير إعجابه ودهشته عند النظرة الأولى، لما فيه من ألفاظ منتقاة، وصياغة حسنة، وصور فنية جميلة، في حين أن معانيه رديئة، ولا تبعث على الرضى أو الاستحسان، وعندما يكرر القارئ قراءة هذا الشعر، ويطيل النظر فيه، فإنه سرعان ما يكتشف ضعف هذا الشعر، واحتفاله بالشكل دون المضمون، وهذا يشبه إلى حد بعيد الألبسة المخططة عموما، ولا سيما إذا كانت من الحرير اللامع، فإن مثل هذه الألبسة عموما، تبدو خطوطها متمايزة وواضحة ومثيرة عند النظرة الأولى، ولكن إطالة النظر فيها، تجعل تلك الخطوط تتداخل فيما بينها، وتتماوج بطريقة تجعل البصر يزوغ منها، فلا تكاد تظهر تلك الخطوط، ولا يكاد المرء يميز فيما بينها.

ولعل مثل هذا الشعر، ينطبق عليه الضرب الثاني من أقسام الشعر عند ابن قتيبة في كتابه (الشعر والشعراء) عندما تحدث عن أقسام الشعر وأضربه، وهو ما" حسن لفظ وحلا، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى".(١)

وأما رأيه في شعر المخبل، وأن هذا الشعر قصّر عن شعر أقرانه الموجودين معه، وارتفع عن شعر غيرهم من الشعراء، فهو رأي لا يخلو من جرأة في شقه الأول، لأنه قدّم عليه الشعراء الثلاثة، ومن مجاملة في شقه الثاني، لأنه قدّمه على غيره من الشعراء.

---

(١) الشعر والشعراء: ٦٦/١.

وأما رأيه في شعر عبدة، وأنه يشبه المزادة المحكمة الخرز، فليس تقطر، ولا تمطر، فلعله أراد بهذا أن شعره حسن السبك، متماسك الصياغة، جيد المعنى، فهو شعر محكم في ألفاظه وفي معانيه، وهذا يعني أنه الشاعر المقدم على الشعراء الثلاثة من وجهة نظر ربيعة، حتى ولو لم ينطق بهذا الحكم أو يصرح به.

وكما أسلفت، فإن قراءة مثل هذه الأحكام النقدية تعتمد على الاستنتاج والتخمين، وذلك لأنها أحكام عامة وغير دقيقة، وتعبر عن ذوق صاحبها الخاص ورؤيته الذاتية، ومن هنا فقد يرى غيري غير ما رأيت، ويستنتج غير ما استنتجت، ويفسر غير الذي فسرت، ولكن هذا لا يمنع من أن تلتقي بعض التفسيرات، وتتقارب التأويلات، فمن ذلك ما رآه الدكتور مصطفى عبد الرحمن إبراهيم، إذ يقول محاولا تفسير ما قاله ربيعة بن حذار بقوله:" وخلاصة هذه التشبيهات، أن شعر الزبرقان كلام في صورة الشعر، لم يبلغ درجة النضج، بل هو فاسد لا غناء فيه، لأنه فقد الجزالة، وحرارة العاطفة التي تجعل له طعما ممتازا.

وشعر عمرو بن الأهتم يبهر العين فتعجب به لأول نظرة، لأن ألفاظه براقة، وأساليبه خلابة، فإذا فتش الناظر في حقيقته، واستكنه معانيه لم يجد شيئا.

وشعر المخبل السعدي شعر متوسط لا ينهض بصاحبه، حتى يرقى إلى مرتبة الفحول، ولا ينحط إلى درجة كلام المتشاعرين.

وفي شعر عبدة بن الطبيب جزالة وإحكام قوة أسر، لا يرى الناظر فيه ضعفا، ولا يلمح في أساليبه أو معانيه وهنا، فهو أشعر الأربعة".[1]

---

(1) في النقد الأدبي القديم عند العرب: ٣٨.

ثانيا- خصائص النقد في العصر الجاهلي

١- قلة النقد.

٢- الرواية.

٣- إيجاز الأحكام النقدية.

٤- مكان هذا النقد المجالس والمنتديات والأسواق.

٥- قلة التعليل.

٦- الذاتية والانطباعية.

٧- العفوية والبساطة.

٨- تعدد الصيغ النقدية وتنوعها.

٩- الناقد في معظم هذا النقد هو شاعر.

١٠- تعدد روايات الأخبار النقدية.

١١- الانتحال.

ثانيا- خصائص النقد في العصر الجاهلي

بعد هذا العرض والتحليل لبعض الأخبار النقدية في العصر الجاهلي، يمكن أن نحدد خصائص هذا النقد وسماته الأساسية بالنقاط الآتية:

١- قلة النقد:

فالنقد في العصر الجاهلي كان قليلا إذا ما قورن بالكم الشعري الكبير الذي وصل إلينا من نتاج هذا العصر، على الرغم من ضياع قسم كبير منه على نحو ما سلفت الإشارة إليه، ولعل هذا يرجع إلى الأسباب الثلاثة الآتية:

١-١- اعتماد النقد الجاهلي على الرواية:

وهذا يعني ضياع قسم كبير من هذا النقد، لأن الرواية عرضة للنسيان والضياع، وإذا تذكرنا في هذا السياق ضياع كثير من الشعر على الرغم من سهولة حفظه وروايته بالمقارنة مع حفظ النثر، وأن ما وصل إلينا من الشعر هو أقله، وما ضاع منه هو أكثره، وهذا ما ذكره ابن سلام الجمحي، فقد نقل عن يونس بن حبيب عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال:" ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير".[1]أقول: إذا تذكرنا هذه الحقيقة، اتضحت لنا أسباب ضياع كثير من النقد، فالأخبار النقدية هي نصوص نثرية، ومعروف أن حفظ النثر أصعب من حفظ الشعر، فإذا كان ما ضاع من الشعر كثير، فلا شك في أن ما سيضيع من النثر سيكون أكبر.

١-٢- قلة النقاد في العصر الجاهلي:

والسبب الثاني لقلة النقد الجاهلي، هو قلة النقاد، أو بعبارة أدق: قلة من كان يمارس النقد في هذا العصر، وذلك لأن الناقد المتخصص في النقد لم يكن قد وُلد بعد، ويبدو أننا سننتظر زمنا ليس بالقليل حتى نكون أمام الناقد الحقيقي المتخصص في مجال النقد الأدبي، وأمام أول كتاب خصصه صاحبه لنقد الشعر دون سواه من علوم الشعر الأخرى، وهو كتاب "نقد الشعر لقدامة بن جعفر (٣٣٧هـ) في القرن الرابع الهجري.

---

(١) طبقات فحول الشعراء: ١/٢٥.

١-٣- ضعف النقد الجاهلي:

والسبب الثالث لقلة النقد الجاهلي يتعلق بتراجع هذا النقد وضعفه، وعدم لحاقه بركب الشعر لا من حيث الكم، ولا من حيث النوع، فقد كان نقدا بسيطا وعفويا وغير ناضج إذا ما قورن بكم الشعر الجاهلي.

٢- الرواية:

فالنقد الجاهلي نقد شفوي غير مكتوب، وهذا يرجع إلى قلة الكتابة وندرتها، فقد كانت الكتابة موجودة ومعروفة ولكن على نطاق ضيق جدا، لا يسمح باستيعاب كثير الشعر، وقليل النقد، ومن هنا فقد انتقل هذا النقد عن طريق الرواية، وليس عن طريق الكتابة، شأنه في هذا شأن معظم الشعر الجاهلي، حتى وصل إلى عصر التدوين، وبدأ تأليف الكتب، وتدوين الدواوين، فدُوِّن ما وصل من الأخبار النقدية في كتب الأدب والنقد.

ولعل من نافلة القول أن نشير إلى أن علم الرواية يتضمن علمين اثنين:

الأول هو علم الرواية: أي علم السند، ويعني رجال السند من جهة الضبط والعدالة.

والثاني علم الدراية: أي علم متن الخبر.

وقد راعى مدونو الأخبار النقدية في تدوينهم لتلك الأخبار على الأخذ بهذين العلمين، من باب الحرص على توثيق الخبر، والتأكد من صحة متناه، وسلامة سنده.

٣- إيجاز الأحكام النقدية:

فالأحكام النقدية الجاهلية في معظمها أحكام: موجزة ومختصرة ومقتضبة، وليس فيها شرح أو تطويل أو إسهاب، وهذا أمر ينسجم مع النقد في بداياته الأولى، ومع عفوية هذا النقد وبساطته.

٤- مكان هذا النقد المجالس والمنتديات والأسواق:

فقد كانت تُعقد حلقات هذا النقد في المجالس والمنتديات، كالذي رأيناه مثلا في مجلس سعيد بن العاص وخبره مع الحطيئة، أو في الأسواق مثل: سوق عكاظ، وسوق المدينة، اللذين كانت تدور فيهما الكثير من جولات النابغة النقدية.

٥- قلة التعليل:

فالنقد الجاهلي نقد غير معلل إلا في القليل النادر، فالناقد لم يكن يجد نفسه معنيا أو مطالبا بتعليل أحكامه النقدية التي يذهب إليها، ولا سيما أن معظم أحكامهم النقدية هي أحكام ذاتية تأثرية، تعبر عن ذوق صاحبها الخاص تجاه الأثر المنقود، هذا فضلا عن غياب الأدوات والمقاييس النقدية التي تمكّن الناقد من تعليل أحكامه والتفصيل فيها، وإن وقفنا على شيء من التعليل في بعض الأخبار النقدية، كخبر النابغة الذبياني في قبته، وتعليل رأيه في بيتي حسان بن ثابت، وبيان مآخذه عليهما، فهو الشاذ وليس القاعدة، وهو أمر عرضي وطارئ، لا يقاس عليه، ولا يعتد به، ولا ينطبق على معظم النقد الجاهلي، والنابغة لم يكن ليبين رأيه مفصلا ومعللا في بيتي حسان، لولا نبرة التحدي التي واجهه بها حسان، الأمر الذي دفع به إلى الحد من عنجهيته، ببيان بعضٍ من سقطاته، والوقوف على شيء من عثراته في بيتيه، وهذا كان سبب التعليل في هذا الخبر.

٦- الذاتية والانطباعية:

فمعظم النقد الجاهلي ذاتي يعبر عن ذاتية صاحبه وذوقه الخاص، ورأيه الشخصي في الأثر المنقود، كما أنه نقد انطباعي، يعكس انطباع الناقد الأولي عن الآثار الشعرية التي يتناولها بالنقد والملاحظة.

٧- العفوية والبساطة:

وهاتان السمتان هما امتداد للسمتين السابقتين، أعني الذاتية والانطباعية، فالنقد الجاهلي نقد عفوي وبسيط، يعبر عن استحسان الناقد للآثار الأدبية بعفوية وبساطة شديدتين، بعيدا عن أي تعقيد أو جفاء.

٨- تعدد الصيغ النقدية وتنوعها:

تعددت الصيغ النقدية في نقد العصر الجاهلي، وتنوعت تنوعا كبيرا، فكان من ذلك:

٨-١- استخدام صيغة اسم التفضيل (أفعل):

وهي الصيغة النقدية الأكثر شهرة وتداولا واستعمالا ورواجا وانتشارا في نقد العصر الجاهلي، كقولهم: أشعر العرب، وأشعر الناس، وأشعر الشعراء ونحو ذلك، ويرجع اهتمامهم بهذه الصيغة، وولعهم باستعمالها، وغرامهم باستخدامها إلى أن المفاضلة بين الشعراء، كانت الهاجس الأكبر الذي يشغل بال معظم من مارس النقد، أو تعاطى معه في هذا العصر، فهم منهمكون دائما وأبدا، ومشغولون كثيرا وإلى درجة تشبه الهوس، بالحديث عن الشعراء، والموازنة فيما بينهم، ولديهم رغبة محمومة في تحديد الأفضل منهم، والمتفوق على غيره، على الرغم من أنهم لم يتفقوا على ذلك لا في القديم ولا في الحديث، ولن يتفقوا على ذلك أبدا، بسبب اختلاف أذواق الناس، وتباين مذاهبهم، وتنوع آرائهم في النظر إلى الشعر والشعراء.

٨-٢- التشبيه المتأثر بالبيئة:

فقد كنوا يعتمدون على التشبيه في وصف بعض أشعار الشعراء ونقدها، ومعظم تشبيهاتهم كانت مستمدة من البيئة المحيطة بهم، كما هو الحال في خبر ربيعة بن حذار الأسدي، وموازنته بين الشعراء الأربعة: الزبرقان بن بدر التميمي، وعمرو بن الأهتم، وعبدة بن الطبيب، والمخبل السعدي، إذ استخدم في هذه الموازنة عناصر مثل: اللحم، والبرود الحبر، والمزادة، وهي عناصر مستمدة من البيئة المحيطة بالقوم في ذلك العصر.

والتأثر بالبيئة في تراثنا الفكري لم يقتصر على النقد فقط، بل تجاوزه إلى كثير من العلوم كعلم العروض مثلا الذي وضع أسسه الأولى الخليل بن أحمد الفراهيدي، الذي ظهر فيه تأثره واضحا وجليا بالبيئة المحيطة ولا سيما ما يتعلق بمصطلحات هذا العلم ومفهوماته الأساسية.

٨-٣- تسمية الشعراء:

فقد كانوا يطلقون على بعض الشعراء تسميات تتضمن في دلالاتها بعضا من صفات الشاعر، أو من سمات شعره، مثل: (النابغة الذبياني) لنبوغه في الشعر، و(علقمة الفحل) لتفوقه وفحولته الشعرية ولا سيما في المبارزة الشعرية التي حدثت بينه وبين امرئ القيس أمام أم جندب، و(مهلهل بن ربيعة) لأنه أول من هلهل الشعر وأرقَّه، أي جعله رقيقا، و(صناجة العرب) وهو لقب الأعشى لغناء العرب بشعره.

٨-٤- تسمية القصائد:

كذلك فقد كانوا بعض القصائد بتسميات تعكس بعضا من السمات الفنية التي تتسم بها تلك القصائد، سواء أكان ذلك على صعيد اللفظ، أم على صعيد المعنى، مثل: (البتارة)[١]وهي قصيدة لحسان بن ثابت، وسُميت كذلك لأنها بترت غيرها من القصائد، وقصيدتان لعلقمة الفحل أطلقوا عليهما تسمية (سمطي الدهر)[٢]تشبيها لهما بالقلادة، وقصيدة (اليتيمة) [٣]وهي قصيدة لسويد بن أبي كاهل اليشكري.

٩- الناقد في معظم هذا النقد هو شاعر:

فالشعراء في هذا العصر هم الذين كانوا يمارسون نقد الشعر في معظم الأحيان، وقلما نجد من كان يمارس النقد من غير الشعراء، كأم جندب مثلا وموازنتها بين شعر لزوجها، وشعر لعلقمة الفحل، أو كربيعة بن حذار الأسدي الذي حكم بين الشعراء الأربعة: الزبرقان بن بدر، وعمرو بن الأهتم، والمخبل السعدي، وعبدة بن الطبيب، وذلك لعدم وجود الناقد المتخصص في مجال النقد الأدبي، هذا الناقد

---

(١) هي قصيدته التي مطلعها:

لله درُّ عصـــــــابةٍ نادمْـــــــــتُهُمْ		يومـــــــاً بجِلَّـــــقَ في الزمـــــان الأولِ

وهي في مدح عمرو بن الحارث، وهو الذي قال عنها: هذه والله البتارة التي قد بترت المدائح.

(٢) هما قصيدته التي مطلعها:

طحـــا بـــكَ قلـــبٌ في الحِســـانِ طـــروبُ		بُعيْـــدَ الصِّـــبا عصـــرَ حـــانَ مشـــيبُ

وقصيدته الأخرى التي مطلعها:

هـــلْ مـــا علِمْـــتَ ومـــا اسـتُوْدِعْتَ مَكْتـــومُ		أمْ حَبْلُهـــا إذْ نأتْـــكَ اليـــومَ مَصْـــرومُ

(٣)هي قصيدته التي مطلعها:

بســــــطتْ رابعــــــةُ الحبْـــــلَ لنــــــا		فوصَـــلْنا الحبْـــلَ منهـــا مـــا اتّســـعْ

وسميت كذلك لما اشتملت عليه من الأمثال.

الذي لن يأتي- كما ذكرنا سابقا – إلا بعد أن يشتد عود هذا النقد، وتنضج أدواته، وتستنبط قوانينه، وتوضع مقاييسه ومعاييره، في القرن الثالث وما تلاه، ونكون من ثم أمام أول كتاب نقدي تخصص في باب النقد دون سواه، وهو كتاب (نقد الشعر) لقدامة بن جعفر(٣٣٧هـ) في القرن الهجري الرابع.

١٠- تعدد روايات الأخبار النقدية:

وهي سمة من سمات النقد في العصر الجاهلي، وفي المرحلة الشفوية عموما، فالأخبار النقدية التي وصلت إلينا تكاد تكون في معظمها – إن لم نقل كلها - متعددة الروايات، وقلما نقف على رواية واحدة للخبر الواحد، وهذا يرجع إلى تعدد رواة هذه الأخبار من جهة، وإلى اعتمادها على الرواية في الانتقال من جيل إلى آخر من جهة أخرى، وعلى الرغم من حسنات الرواية الكثيرة التي لا يمكن إنكارها أو تجاهلها أو التقليل من قيمتها، فهي التي حفظت لنا إرثا معرفيا غنيا وخصبا ومترامي الأطراف من عصر المشافهة إلى عصر التدوين، إلا أنها لا تخلو من بعض العيوب والعثرات التي تسببها طبيعة الرواية، والآلية التي تتم من خلالها، كالزيادة في النصوص تارة، أو النقص فيها تارة، لاعتمادها على الذاكرة التي قد تخون صاحبها وتخذله أحيانا، فيزيد في النص حينا، وينقص منه حينا.

١١- الانتحال:

فقسم من هذا النقد مشكوك في صحته، وفي صحة نسبته إلى العصر الجاهلي، أي أنه قد يكون منحولا، كما هو الحال في خبر قبة النابغة الذبياني، وخبر أم جندب وموازنتها بين شعر لزوجها امرئ القيس، وشعر لعلقمة الفحل، وغيرهما من الأخبار فقد شكك عدد من الباحثين العلماء في القديم والحديث في صحة هذين الخبرين، وفي صحة نسبتهما إلى العصر الجاهلي.

وهذا يعني أن الانتحال ليس آفة أصابت الشعر وحده، بل تجاوز ذلك ليصل إلى النقد أيضا، فإلى جانب كثرة الشعر الجاهلي المنحول، نجد نقدا منحولا أيضا، وإن كان قليلا إذا ما قورن بكثرة الشعر المنحول، وهذا يرجع إلى قلة الأخبار النقدية أصلا، إذا ما قورنت بكثرة الشعر وغزارته في العصر الجاهلي.